من أسرار التعبير القرآني
في حديثه عن الجبال

إعداد

د/ ريهام مختار محمد

مدرس البلاغة والنقد

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية

من أسرار التعبير القرآني في حديثه عن الجبال

ريهام مختار محمد محمد
قسم البلاغة والنقد ، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية ، جامعة الأزهر ، مصر
البريد الإلكتروني: rehammoktar-islam.alx@azhaar.edu.eg

الملخص :

هذه دراسة بلاغية تتناول صورة الجبال في القرآن الكريم، وقد تنوعت صور الجبال في القرآن الكريم فبدت بصورة عجيبة مدهشة تستوجب النظر والتدبر، فكان لحديث القرآن الكريم عن الجبال أثرٌ واضح في إظهار القدرة الإلهية العظيمة في أبهى صورها، وذلك عند الحديث عن أهوال القيامة وما يحدث للجبال في هذا اليوم العصيب من التسيير والنسف والدَّكّ مع كونها من أعظم المخلوقات قوة ومتانة وصلابة.

إن حديث القرآن الكريم عن الجبال جاء متناسبًا لعظمها وقوتها وصمودها وصلابتها عند الحديث عن أحوالها الدنيوية، كما دلَّ الحديث أيضًا على هوانها وخفتها وضعفها عند الحديث عن أهوال القيامة وما يتبعه من تبدّل لأحوال الكون.

لقد اتخذ القرآن الكريم من الجبال أداة شاهدة على عدم القدرة البشرية على تحمُّل رؤية الله تعالى، كما اتخذها أداة لتهديد المكذبين الضالين والتعريض بهم، ثم إنها كانت أيضا أداة لإظهار ضعف أقوى المخلوقات أمام غضب الله تعالى وانتقامه من الكافرين.

وقد كان للجبال دورٌ مهم في إظهار عظمة لقرآن الكريم وبيان مكانته ومدى تأثيره في تلك الأجسام الصلبة القوية التي يصعب على العقل البشري إدراك ضعفها ووهنها.

وقد اتبع البحث المنهج التحليلي للوقوف على كيفية عرض القرآن الكريم لأحوال الجبال سواء ما كان يتعلق منها بالأمور الدنيوية، أم ما يتعلق منها بالأمور الأخروية، ومن ثَم الوقوف على أهم الخصائص البلاغية في الآيات التي تحدثت عن الجبال.

الكلمات المفتاحية: أسرار، التعبير، حديث، الجبال ، الأجسام الصلبة، الصلابة.

Some of the Secrets of Quranic Expression that Talks about Mountains

Reham Mukhtar Mohammed Mohammed
Department of Rhetoric and Criticism, Faculty of Islamic and Arab Studies, Alexandria, Al-Azhar University, Egypt
Email: rehammoktar-islam.alx@azhaar.edu.eg

Abstract:
This is a rhetorical study that examines the picture of mountains in the Holy Quran. The images of mountains in the Holy Quran have varied and appear surprisingly surprising to consider and reflect on. The Holy Quran's talk of mountains has a clear impact on the manifestation of the great divine power in its finest form. This is while talking about the horrors of the resurrection and what happens to mountains on this difficult day of the resurrection day, torpedoing and mucking although it is one of the greatest creatures of strength, durability and toughness.

The Holy Quran's talk of mountains is commensurate with their magnitude, strength, steadfastness and toughness when talking about their mundane conditions. It also indicates their humiliation, frivolity and weakness when talking about the horrors of the resurrection and the subsequent transformation of the conditions of the universe.

The Holy Quran of the Mountains is a tool that attests to mankind's inability to withstand the vision of Allah Almighty, as well as a tool to threaten and expose stray liars. It was also a tool to demonstrate the vulnerability of the most powerful creatures to Allah's anger and revenge against the infidels.

Mountains have played an important role in demonstrating the greatness of Quran and demonstrating its position and impact on those powerful hard bodies that make it difficult for the human mind to perceive their vulnerability and vulnerability.

Keywords: Secrets, Expression, Talking, Mountains, Solid Objects, Solidity

مقدمة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ، الحمد لله ربِّ العالمين، الذي ميَّز الإنسان بنعمة البيان، وأنزل على رسوله –محمدٍ ﷺ– خير كتاب ألا وهو "القرآن الكريم"، والصلاة والسَّلام على خير البرية المبعوثِ رحمةً للعالمين – محمد ﷺ – وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد....

فقد عُني القرآن الكريم بالجبال عنايةً فائقة، حيث ذكرها في كثيرٍ من آياته الكريمة، الأمر الذي دعا إلى التدبُّر والتفكُّر في الأسرار التي تكمن وراء ذكرها وتتبّع جميع أحوالها؛ لكونها من المخلوقات التي ينبغي للإنسان أن يتأمل شئونها؛ فهي من عجائب المخلوقات الجديرة بالتأمل، تلك المخلوقات الدالة على عظمة خالقها، يقول سبحانه: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ١٨ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ١٩ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ٢٠﴾ الغاشية: ١٧ – ٢٠ كما ينبغي أن ندرك تلك العلاقة الوطيدة الأزلية بين الإنسان والجبال على مرّ العصور والأزمان، فقد اتَّخذها الإنسانُ ملاذًا آمنًا له من المخاطر والمخاوف، فاتخذ منها البيوت والكهوف، والحصون، كما اتخذ منها رمزًا للشموخ والعزة والأنفة، فكانت بذلك آيات واضحة الدلالة على حكمة ربنا سبحانه وعلمه وسلطانه.

وقد تنوعت صور الجبال في القرآن الكريم بطريقة أزهلت العقول وسيطرت على المشاعر، لذا فقد توجهت بالبحث صوب الآيات القرآنية التي تناولت الجبال بدراسة بلاغية تحت عنوان:

"**من أسرار التعبير القرآني في حديثه عن الجبال**"

ومن الأمور التي دفعتني إلى اختيار هذا الموضوع :

١-تنوع صور الجبال في القرآن الكريم؛ مما يدعو إلى البحث في الأسرار التي تكمن وراء ذكرها بهذه الصورة.

٢-الوقوف على كيفية عرض القرآن الكريم لأحوال الجبال، سواء ما تعلق منها بالأمور الدنيوية، وما تعلق بالأمور الأخروية، أو ما كان منها دليلًا على القدرة الإلهية العظيمة.

٣-الوقوف على أهم الخصائص البلاغية في الآيات القرآنية التي تحدثت عن الجبال، ومن ثَمَّ الوصول إلى تلك الأسرار البلاغية، التي تكمن وراء كثرة ذكرها في القرآن الكريم.

منهج البحث:

اعتمد البحث المنهج التكاملي، حيث اعتمدتُ على المنهج الاستقرائي في استقصاءِ الآياتِ القرآنية التي تتحدثُ عن الجبال، والمنهجِ التصنيفي في تصنيفِ الآياتِ وَفْقًا للموضوعات التي تجمعُه، والمنهجِ التحليلي في تحليلِ الآياتِ تحليلًا بلاغيًّا يكشفُ عن القيمِ البلاغية التي تشتملُ عليها.

خطة البحث:

تألَّف البحث من مقدِّمة، وتمهيد، وأربعة مباحث، وخاتمة، وفهارس.

أمَّا المقدِّمة:

فتحدثتُ فيها عن موضوع البحث، عنوانه، والأسباب الداعية إلى اختياره، والمنهج المتَّبع في دراسته، والخطّة التي قامت عليها الدِّراسة.

وأمَّا التمهيد:

فقد عرضتُ فيه لتلك الآيات التي ذُكر فيها لفظ الجبال ببيان عظمتها ومكانتها وكيفية الربط بينها وبين عظمة خالقها وقدرته وسلطانه.

وكانت الدراسة البلاغية التحليلية في أربعة مباحث على النحو الآتي:

المبحث الأول: من أسرار التعبير القرآني في وصف الجبال.

المبحث الثاني : من أسرار التعبير القرآني في امتنان الله _تعالى_ بالجبال.

المبحث الثالث: من أسرار التعبير القرآني في حديثه عن استجابة الجبال.

المبحث الرابع: من أسرار التعبير القرآني في وصفه لأهوال القيامة بصنيعه في الجبال.

ثم شفعتُ البحث بخاتمة تشتمل على أهم النتائج التي توصلتْ إليها الدراسة.

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ ﴾ البقرة: ٢٨٦

الباحثة:

د. ريهام مختار محمد محمد

"تمهيد"

تحدَّث القرآن الكريم عن الجبال حديثًا مفصَّلًا في مواضع كثيرة، بلغت أكثر من أربعين موضعًا، ذاكرًا صفاتها وخصائصها وجلالها وعظمتها، داعيًا إلى تأمُّلها والتدبر في كيفية صنعها قائلًا: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ ﴾ الغاشية: ١٧ - ٢٠

فجعلها في حيِّز المخلوقات التي تستوجب النظر والتدبُّر؛ لجلالها، وصلابتها، وبديع تركيبها، فقد صوَّر القرآن الكريم الجبال بالأوتاد التي تمسك الأرض، وتحفظها، وتعمل على توازنها، وتثبيتها في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ ﴾ النبأ: ٦ – ٧ فلولا الجبال الراسيات ما سَكنت الأرض، وما استطاع الخلق الحياة عليها، كما صوَّر القرآن الكريم كثيرًا من الأمور التي تدل على استجابتها لأوامر الله _تعالى_ مصرِّحًا بعبوديتها وطاعتها، فذكر سجودها في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾ ﴾ الحج: ١٨

كما ذكر تسبيحها في قوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ الأنبياء: ٧٩

ب

بل صرّح بما هو أعظم وأوقع من ذلك حين وصفها بالخشوع والتصدّع من خشية الله تعالى، فقال سبحانه: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ الحشر: ٢١ فصوَّرها وقد تفوقت على الإنسان في ذلك، مع كونه أكرم المخلوقات التي أوجدها الله _تعالى_ على الأرض.

لقد تحدَّث القرآن الكريم عن الجبال حديث طاعةٍ وإجلالٍ مع ما صُنعت عليه من القوة والمتانة والصلابة، فصار الجبل حين تجلَّى الله تعالى له دكًّا، أي فُتِّت واستوى بالأرض وكأنه ما كان، وليس ذلك إلا إجلالًا وتعظيمًا لله _سبحانه_ يقول تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣ ﴾ الأعراف: ١٤٣

كما صور القرآن غضبها وثورتها، فذكر خرورها وهدّها غَيْرة على بارئها، في قوله سبحانه: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ٨٨ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ٩٠ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ٩١ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ٩٢﴾ مريم: ٨٨ – ٩٢ فصوَّر القرآنُ الكريم الجبال في صورة الكائن الحي، ينفعل من هول الموقف وشناعته، بل إنها أشفقت من حَمْل الأمانة في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ٧٢ ﴾ الأحزاب: ٧٢

وقد جُعلت الجبال على ألوان كثيرة، فمنها جبالٌ حمرٌ، وجبالٌ بيضٌ، وغيرهما، كما وضع الله _تعالى_ فيها من المنافع ما لا يُحصى، فجُعلت أعلامًا وأوتادًا ورواسي شامخات؛ حتى لا ترتجف الأرضُ وتضطرب، ومن منافعها _أيضًا_ أنها جُعلت حصونًا وأكنانًا، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ٨١ ﴾ النحل: ٨١

ومع ما ذُكر من صفاتها وخصائصها، جاءت الآيات القرآنية بما يدل على فنائها وزوالها يوم تُبدَّل الأرضُ غير الأرض، فصوَّرها القرآن بأنها تسير كالسحاب، وأنها تكون كالعهن المنفوش، وأنها تُنسف نَسفًا، فتصبح الأرضُ من بعدها بارزةً لا عِوج فيها ولا أَمْتًا، وقد ذَكر القرآنُ الكريمُ مشاهدَ كثيرة للجبال في هذا اليوم العصيب، منها قوله سبحانه:

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ ﴾ طه: ١٠٥ – ١٠٧ وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ ﴾ القارعة: ٤ – ٥ وقوله سبحانه: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ ﴾ الكهف: ٤٧

فقد أخبرنا القرآن الكريم عن أهوال القيامة وما تفعله بالمخلوقات، فذَكَرَ ما يدلُّ على زوال الجبال واقتلاعها من أماكنها فتكون كالعهن، وتكون كالرمل، وتندكُّ لتصير هباءً منبثًّا، فتتلاشى ولا يبقى منها شيء، وتصبح الأرض من بعدها قاعًا صفصفًا.

والقرآن الكريم حين يذكر الجبال في هذه المواضع، إنما يكون ذلك لبيان عظمتها ومكانتها، والاستدلال بهذه العظمة على عظمة خالقها وموجدها، وقدرته سبحانه على إيجاد الخلائق مرة أخرى بعد فنائها.

المبحث الأول

من أسرار التعبير القرآني في وصف الجبال.

ورد في القرآن الكريم في معرض التنويه بأوصاف الجبال آيات كثيرة، منها قوله تعالى:

١ـ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [الأعراف: ١٧١].

٢-﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾ [الرعد: ٣١].

٣ـ﴿وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦].

٤ـ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [هود:٤٢-٤٣].

٥ـ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الإسراء: ٣٧].

٦ـ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾﴾ [النور: ٤٣].

الموضع الأول:

قوله تعالى:﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [الأعراف: ١٧١].

ورد لفظ الجبل في الآية الكريمة في مقام التحذير والتخويف، بدلالته على القوة والصلابة والضخامة، لذا أوثر التعبير بلفظ (الجبل) دون (الطور) كما في آية سورة البقرة في قوله تعالى:﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ البقرة: ٦٣

والآيتان تدوران حول حادث واحد، فالغرض منها واحد، وهو التهديد والوعيد، وإن اختلفت الألفاظ، ويرجع هذا الاختلاف إلى شدة الوعيد في سورة الأعراف، فجاء استعمال لفظ الجبل صراحة؛ لما يحمله اللفظ من القوة والعظمة والشدة، فكان التعبير به في موطن الهول والشدَّة، وناسب ذلك التعبير بلفظ (النتق) الذي يحمل معنى التخويف والتهديد، ولا شك أن هذا اللفظ أوقع في التهديد والوعيد من الرفع؛ فالنتق: من نتق الشيء إذا حرَّكه وزعزعه ورفعه من مكانه ليرمي به[(١)]، وعليه فإن رفع الجبل من مكانه بهذا الوصف المدهش يعدّ من دلائل القدرة الإلهية العظيمة؛ فالجبال التي جُعلت أوتادًا راسخة في الأرض قد اقتُلعت من جذورها وصارت فوقهم كالسحابة .

والآية معطوفة على ما قبلها من أحوال بني إسرائيل، يقول الشيخ الطاهر: "وهذه آية أظهرها الله _تعالى_ تخويفًا لهم؛ لتكون مذكِّرة لهم، فيعقب ذلك أخذُ العهد عليهم بعزيمة العمل بالتوراة، فكان رفعُ الطور معجزةً

(١) ينظر لسان العرب لابن منظور مادة (نتق)

لموسى –عليه السَّلام– تصديقًا له فيما سيبلغهم عن الله من أخذ أحكام التوراة بعزيمةٍ ومداومة"[1]

وإيثار (النتق) دون التحريك أو القلع مثلًا؛ لأن النتق فيه معنى الصعوبة والشدة والقوة، وهو مناسبٌ جدًّا لرفع الجبل مع قوته وضخامته، كما أنَّ (النتقَ) لا يكون إلا في الشيء المكروه؛ لأن فيه معنى الاضطراب، والاضطراب يوحي بأنَّ أجزاء الشيء يضرب بعضُها بعضًا، وهذا المعنى لا يتحقق في غيره من الألفاظ كالحركة أو القلع أو النقل، ثم إنَّ (النتق) يوحي بسرعة النزع، أي سرعة نزع الجبل دون مهلة أو تريُّث، فلمَّا كان اقتلاع الجبل أمرًا مستحيلًا يصعب تصوُّره، آثر النظم التعبير بلفظ النتق بدلالته على هذه القدرة الهائلة العجيبة على النزع بقوة، وما كان لأيّ كلمةٍ سوى (نتق) لتعكس هذه الصورة بهذه الدقة، فالقوة التي تحملها كلمة (نتق) تتناسب مع خلع الجبل بقوته وضخامته وجلاله من الأرض.

وإسناد النتق إلى نون العظمة؛ لأن الأمرَ عظيم، فناسبه التعبير بضمير الجمع الدَّال على التعظيم وعلوّ القدرة؛ زيادة في الترهيب والتخويف، لذا جاء الظرف ﴿فَوْقَهُمْ﴾ليفصح عمَّا وقع في نفوسهم من شدَّة الهلع.

واختيار كلمة (الظُّلَّة) خاصة؛ لِما تحمله من معنى الهلاك والعذاب، قال تعالى:﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ ﴾ الشعراء: ١٨٩ فهي تعكس حال اليأس الذي وقع في نفوسهم، والظلة توحي بالإحاطة والشمول، فهي تحمل معنى الإطباق، أي أن الجبل كاد يطبق عليهم فيهلكهم.

(١) ينظر التحرير والتنوير جـ ١٥٦/٩ تأليف: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : ١٣٩٣هـ)_ الدار التونسية للنشر _ تونس_ ١٩٨٤ هـ

وتشبيه الجبل –هنا– بالظلة تشبيه لطيف؛ لأن الجبل الذي جُعل وتدًا راسخًا في الأرض لا يمكن تخيُّله، وقد قُلع من مكانه المعهود؛ ليصير فوقهم كالسحابة التي تتَّسم بخفَّتها وسرعتها، لا شكَّ أنَّ هذه الصورة نادرة في تخيّلها فضلًا عن تحقّقها.

وجملة: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمۡ﴾ يصحُّ أن تكون الباء في ﴿بِهِمۡ﴾ بمعنى (على) أي واقعٌ عليهم، وقيل: "عُدِّي ﴿وَاقِعٌۢ﴾ بالباء: للدلالة على أنهم كانوا مستقرِّين في الجبل، فهو إذا ارتفع وقع ملابسًا لهم ففنَّتهم، فهم يرون أعلاه فوقهم وهم في سفحه"(١)

والوجه _كما أرى_ أن يكون المراد بالباء _هنا_ المبالغة في يقينهم بالهلاك حال رؤيتهم الجبل فوق رءوسهم، وكأنَّ الجبلَ ملابسٌ لهم، وهذا يؤيِّد معنى الإطباق المفاد من كلمة (الظُّلَّة)، لذا أوثر التعبير بالاسم ﴿وَاقِعٌۢ﴾ دون الفعل (سيقع) والذي يقتضيه مقام استحضار الصورة؛ وذلك للتأكيد على تحقُّق وقوعه، أي أنَّه واقعٌ لا محالة.

هذا، وحديث القرآن عن الجبل _هنا_ جاء في مقام إظهار القدرة الإلهية العظيمة على طريقة الوصف، فهذه الحجارة الصّلبة قد اقتُلعت من مكانها وصارت كالظُّلة فوق رءوس بني إسرائيل.

<u>الموضع الثاني:</u>

كما ورد في معرض التنويه بأوصاف الجبل قوله تعالى:

﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوۡ

(١) ينظر التحرير والتنوير جـ ١٦٥/٩

﴿تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾ [الرعد: ٣١].

قيل في سبب نزول هذه الآية: "إن أبا جهل بن هشام قال لرسول الله -ﷺ-: سيّر بقرآنك الجبال عن مكة حتى تتسع لنا فنتخذ فيها البساتين والقطائع، كما سُخِّرت لداود -عليه السَّلام- إن كنت نبيًا كما تزعم، فلست بأهون على الله من داود، وسخّر لنا به الريح لنركبها ونتجر إلى الشام ثم نرجع في يومنا، فقد شقّ علينا قطع المسافة البعيدة كما سُخِّرتْ لسليمان _عليه السلام_ أو ابعث لنا به رجلين أو ثلاثة ممن مات من آبائنا: منهم قصي بن كلاب"(١)

فالمقصود الأعظم من الآية الكريمة هو بيان فضل القرآن الكريم، وقد ورد لفظ الجبال _هنا_ في سياق مدح القرآن الكريم، وبيان فضله ومنزلته على سائر الكتب المنزلة، وذلك في إطار وصفها بالرسوخ والثبات والضخامة، فالاستدلال بالجبال في سياق عظمة القرآن الكريم دليلٌ واضحٌ على مكانتها وقوتها وعظمتها، ولولا صفاتها هذه ما كان الاستدلال بها في مواطن القوة والعظمة.

وذكر الجبال _هنا_ يرجع إلى هيبتها وقوتها، وهو ما يتناسب مع الغلوّ في عنادهم وكِبْرهم، وتنكير كلمة ﴿قُرْءَانًا﴾ لإفادة العموم، فالمقصود هنا هو المعنى اللغوي للكلمة، وليس الكتاب المنزل على سيدنا محمد -ﷺ- يعني: أيّ قرآن.

(١) ينظر الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل جـ٢/٥٣٠ لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ)_ دار الكتاب العربي – بيروت- الطبعة: الثالثة ١٤٠٧ هـ.

وجواب ﴿وَلَوْ﴾ محذوف، والتقدير: لكان هذا القرآن، أي لو أن كتابًا بتلاوته زُحزحت الجبال وزالت من أماكنها لكان ذلك هو القرآن .

الموضع الثالث:

وفي إطار الحديث عن عظمة الرسول –ﷺ– والمؤمنين، استعير لفظ الجبال لقوتها وعظمتها وهيبتها في قوله تعالى:

﴿وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦].

لمَّا بين سبحانه عاقبة الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم وعدم إيمانهم في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾ (إبراهيم: ٤٤ – ٤٥) أتبع ذلك ببيان صفة مكرهم فقال سبحانه:﴿وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾

والمكر: "تبييت فعل السوء بالغير وإضماره"[(١)] والمفعول المطلق ﴿مَكْرَهُمْ﴾ للمبالغة في مكرهم وسوء نيتهم، وإضافته إلى ضميرهم؛ لشهرتهم به، وإلصاقه بهم، حتى كأنهما شيء واحد تتحد أجزاؤه.

واختُلف في الضمير الغائب في ﴿مَكَرُواْ﴾ فقيل: إنه يعود على الذين سكنوا في مساكن الذين ظلموا أنفسهم؛ بدليل عود الضمير على أقرب مذكور، وقيل: إنه يعود على معاصري سيدنا محمد –ﷺ– بدليل قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ أي أنذرهم يا محمد، ويكون

(١) ينظر التحرير والتنوير جـ١٣/٢٥٠

المقصود بمكرهم هو ما ذُكر في قوله تعالى:﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾[1] الأنفال: ٣٠

والوجه، أن المقصود بمن سكنوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم هم أنفسهم قوم سيدنا محمد ﷺ؛ فكفار قريش كانوا يمرّون بديار قوم عاد وقوم ثمود أثناء رحلاتهم إلى الشام واليمن، وقد رأوا بأنفسهم ما فعله الله _تعالى_ بهم من الإهلاك والتدمير بسبب كفرهم.

وتقديم الظرف في جملة ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ للمبالغة في إبطال مكرهم لأنه معلوم ومكتوب عند الله تعالى، وفي هذا إشارة إلى تهديدهم بالمعاقبة على مكرهم بالرسول ﷺ .

وجملة: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ (إن) هنا تفيد النفي، أي: وما كان مكرهم، واللام الداخلة على المضارع ﴿لِتَزُولَ﴾ هي لام الجحود التي تفيد النفي القاطع، والإنكار التام لما قبلها وما بعدها، أي أن مكرهم هذا لا يمكن تأثيره أبدًا على الجبال.

ولفظ ﴿ٱلْجِبَالُ﴾مستعار للرسول ﷺ والمؤمنين، فقد صوَّر القرآنُ الكريم الرسولَ ﷺ والمؤمنين بالجبال في شموخها ورسوخها وقوتها، وأنها لا يستطيع أحدٌ زعزعتها أو النيل منها، وعليه فالآية الكريمة تعريضٌ بالمشركين واستخفافٌ بمكرهم الذي يتوهمون تأثيره على الرسول ﷺ وأصحابه.

(١) ينظر مفاتيح الغيب لأبي عبد الله الرازي الملقب بفخر الدين الرازي (ت: ٦٠٦هـ)- دار إحياء التراث العربي – بيروت- الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠ هـ .

ويصح أن يكون استعير لفظ ﴿ٱلْجِبَالُ﴾ لدين الإسلام بجامع الثبوت والرسوخ في كل، أي أن مكرهم أحقر من أن تزول معه الجبال الراسيات التي هي الدين الإسلامي وشرائعه.

وعلى قراءة الكسائي، أي فتح اللام الأولى في كلمة ﴿لِتَزُولَ﴾وضم اللام الثانية أي: لَتزولُ، يكون المقصود عِظم مكرهم وشدته لدرجةٍ يتسبب عنها زوال الجبال إن كان لها أن تزول، "وهذا من المبالغة في حصول أمرٍ شنيع أو شديد في نوعه على نحو قوله تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠﴾ "[1] مريم: ٩٠

... هذا، وقد ورد لفظ الجبال _هنا_ في إطار الحديث عن أمرٍ شنيع، تكاد أن تزول منه الجبال الراسيات من فظاعته وشناعته، ومع هذا المكر الذي بلغ من الشدة ما بلغ، لم يقدروا على التأثير في دين الإسلام، أو النيل من رسوله _ﷺ_ كما يُحتمل أن يكون المقصود بالجبال الشريعة الإسلامية، وذلك على طريقة المجاز بجامع الثبوت والقوة، وعليه يكون وصف مكرهم بالضعف الذي لايمكنه التصدي للشريعة التي هي كالجبال الراسيات.

<u>الموضع الرابع:</u>

ومن المشاهد التي تؤكد على عظمة الجبال وضخامتها تشبيه الموج بالجبال في قوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٤٢ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ۝٤٣﴾ [هود:٤٢-٤٣].

(١) ينظر التحرير والتنوير جـ١٣/٢٥١

فقد وردت الآيات الكريمة في إطار الحديث عن مشهدٍ عظيمٍ من مشاهد القدرة الإلهية، وهي تلك الصورة الرهيبة الحاسمة، التي فصلت بين المؤمنين والكافرين، مَن آمن مع نوح –عليه السلام– وركب معه السفينة، ومَن عصاه ولم يؤمن به ورفض الركوب معه، ثم بيَّن سبحانه حال السفينة وهي تجري بهم في موجٍ كالجبال، حيث شبه الأمواج العظيمة الهائلة المتراكمة بالجبال في ارتفاعها وقوتها، والتعبير بلفظ الجبال –هنا– يعكس موقف الرهبة والفزع، حيث شبه الموج في قوته وشدته، بالجبال التي هي أثقل شيء، وأصلب شيء، والذي بدوره يعكس صعوبة إدراك السفينة، وهي تجري في مثل هذه الأمواج القوية التي تشبه الجبال الصلبة، إذًا ليس المقصود من التشبيه بالجبال الارتفاع والقوة فقط، وإنما أراد تصوير صعوبة اختراق تلك الأمواج، التي تشبه اختراق الجبال الراسيات، لذا جاء التعبير بالمضارع ﴿تَجْرِي﴾ لاستحضار صورة اختراق السفينة لتلك الأمواج الهائلة؛ لبيان شدة الهول، وكأنَّا نشاهدها حقيقة.

ثم ينتقل النظم إلى وصف الجبل نفسه في جملة: ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ﴾ فوصف الجبل بالارتفاع والضخامة، لدرجةٍ ظنَّ معها أن الجبل سيعصمه ويمنعه من الغرق، فذكر الجبل في هذا المقام له دلالة عظيمة؛ فهو رمز الرسوخ والثبات والارتفاع في هذا المشهد المثير، الذي تبدلت فيه الأرض، وصارت على غير هيئتها، فأضفت بذلك على الكون من الرُّعب والفزع ما لا يخفى، فجاء التعبير بالجبال التي يظن الناس أنها بعيدةٌ كل البُعد عن التأثّر بمثل هذه الأهوال لثباتها وقوتها وضخامتها وارتفاعها.

الموضع الخامس:

كذلك ورد في معرض الحديث عن ارتفاع الجبال وضخامتها، هذه الآية التي يتحدث القرآن الكريم فيها عن بعض الأمور التي حرَّم الله تعالى في قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الإسراء: ٣٧].

فقد جاء ذكر الجبال في الآية الكريمة في مقام النهي عن بعض الأمور التي حرَّمها الله تعالى، ومنها: قتل الأولاد خشية الفقر، والزنا، وقتل النفس التي حرم الله، وأكل مال اليتيم، ثم المشي في الأرض مرحًا.

والمرح: هو شدة الفرح، والمقصود من الآية هو النهي عن المشي في حال تكبّر وعظمة، قال تعالى: ﴿ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴾ لقمان:/ ١٩ لذا عبَّر بالمصدر ﴿مَرَحًا﴾ للمبالغة في المرح والتكبُّر، والتعبير بالظرف ﴿فِي﴾ مع أن المشي إنما يكون على الأرض وليس فيها؛ تهكُّمًا بمن يمشي على هذه الصورة، وتصويره في صورة من يتوهَّم اختراق الأرض بأقدامه.

وجملة:﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾ تعليلية، لبيان ضعفه وأنه مهما تكبَّر، فلن يستطيع أن يخرق الأرض؛ لقوتها وصلابتها أمام ضعفه وعجزه، قال تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ النساء:/ ٢٨

والتعبير بالاسم الظاهر دون الضمير ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ تأكيدٌ على ضعفه بتكرار ذكرها، وتذكيره بضخامتها وقوتها كلما ذُكرت صراحة.

وجملة: ﴿وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾معطوفة على الجملة قبلها، وداخلة في حيز التعليل، أي أنك لن تستطيع خرق الأرض بمشيك، ولن تستطيع أن تبلغ طول الجبال وارتفاعها، فذكر الجبال هنا دليل على وصفها بالضخامة والارتفاع الذي لا يمكن أن يطاوله مخلوق مهما تهيَّأت له أسباب العظمة والكبرياء.

هذا، وقد ورد ذكر الجبال في الآية الكريمة في إطار التوجيه، عن طريق إظهار عجز الإنسان وضعفه مهما بلغت قوته، وأنه لا يمكنه التأثير في الأرض التي تحت قدميه، كما أنه لا يمكنه أن يطاول الجبال التي فوقه، فالاستدلال بذكر الأرض والجبال قد أظهر ضعفه في مواجهة آيات الله _تعالى_ في الكون، مما يؤكِّد حقيقة قوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ النساء:/ ٢٨

الموضع السادس:

ومن صور الجبال الغنية بالدلالات على عظمتها وقوتها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾﴾ [النور: ٤٣].

لمَّا ذكر النظم _بعد بيان عاقبة المؤمنين والكافرين_ هذه الحقيقة المقررة في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾﴾ (النور: ٤٢) أي حقيقة ملكه وقدرته سبحانه على البعث، أعقب ذلك ببيان بعض السنن الكونية، ومظاهر القدرة على تصرفه في كل الأمور، فقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا ... الخ﴾

ومعنى: ﴿يُزْجِى﴾ من زجّى الشيء وأزجاه أي ساقه ودفعه، والريح تُزجي السحاب أي تسوقه سوقًا رفيقًا[1] يقال: زجى الراعي إبله تزجية، إذا ساقها برفق، وأزجت الريح السحاب إذا دفعته، وهذا ممَّا "يُستعمل في سَوق الثقيل برفقٍ كالسحاب والإبل، والسحاب اسم جنس واحده سحابة، والمعنى:

(١) ينظر لسان العرب مادة (زجا)

يسوق سحابة إلى سحابة، ثم يؤلّف بينه، أي بين أجزائه لأنه سحابة تتصل بسحابة، فجعل ذلك ملتئمًا بتأليف بعضٍ إلى بعض، فيجعله ركامًا أي متكاثفًا يجعل بعضه إلى بعض"(١)

وقد ورد لفظ الجبال في الآية الكريمة في سياق الاستدلال بالآيات الكونية _وما تتبعه من نظام تسير عليه بأمر الله _تعالى_ على عظيم قدرته وحكمته في التصرف في الأمور كلها.

وإزجاء السحاب، ثم التأليف بينه، ثم جعله ركامًا، ثم خروج الودق من خلاله، إلى آخر هذه الأحوال والانتقالات، دليلٌ واضحٌ على هذه القدرة الإلهية العجيبة، فقد شبه السحب المتماسكة المتراكمة بالجبال في قوتها وتماسكها، وكأن قيل: وينزل من السحاب الذي يشبه الجبال في تراكمه بردًا.

ويصح أن يكون المعنى: ينزل من السماء مطرًا كالجبال في تماسكه وقوته، لذا قيل يصيب به من يشاء؛ فهذه الكتل الثلجية التي تشبه الصخور، قد تصيب وتضرّ أشياء، وقد يُصرف ضررها عن غيرها.

والتعبير بالمضارع ﴿يُزْجِي - يُؤَلِّفُ- يَجْعَلُهُ- فَتَرَى- يَخْرُجُ - وَيُنَزِّلُ ﴾ لاستحضار صورة سوق السحاب، ودنوّ بعضه من بعض، حتى يصير ركامًا فيخرج منه الماء، وكأنَّ المشهد حاضرٌ أمام المتلقي بكل تفاصيله.

وفي التعبير بـ (ثم) دليلٌ على أن الانتقال من حالٍ إلى حالٍ يستغرق زمنًا، فالتأليف بين السحاب لم يكن عقب إزجائه مباشرة، وكذلك جعل السحاب متراكمًا لم يكن عقب تأليفه ودنوّه من بعضه مباشرة، وإنما يكون ذلك بعد مرور زمن، فمن المعلوم "أن الله يزجي سحابًا، أي يثيرها من بخار

(١) ينظر البحر المحيط في التفسير جـ٨/٧٥ لأبي حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (ت: ٧٤٥هـ) تحقيق: صدقي محمد جميل – دار الفكر – بيروت الطبعة ١٤٢٠ هـ

الماء، فيتكون من هذا البخار سحاب، فيدفعه الله _تعالى_ ويسوقه في تجمعه حتى يصير ركامًا، وإن ذلك لَا يكون فور تكوين السحاب، إنما يكون بعد زمن، ولذلك كان العطف بـ " ثم " فقال سبحانه: (ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا)" [1]

ويمكن القول بأن كلمة (ثم) هنا يُراد بها الترقّي من حالٍ إلى حال؛ فإنَّ التأليف بين السحاب أعلى وأعجب من إزجائه وسوقه بيسرٍ وسهولة، وأيضًا جعل السحاب متراكمًا كالجبال أعلى وأعجب من التأليف بينه ودنوّ بعضه من بعض.

والركام: "من الرَّكْم وهو جمعك شيئًا فوق شيء حتى تجعله ركامًا، كركام الرمل والسحاب، ونحو ذلك من الشيء المرتكم بعضه فوق بعض، ورَكَمَ الشيءَ يركُمُه إذا جمعه وألقى بعضه على بعض"[٢].

والتعبير بالركام هو الذي مهَّد لتشبيه السحاب بالجبال؛ فلولا جعل السحاب ركامًا، ما شُبِّه بالجبال في تماسكها وتراكمها وعلوها، حتى صارت كالجبال في ضخامتها وجلالها .

(١) ينظر زهرة التفاسير جـ١٠/٥٢٠٤ تأليف: محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بـأبي زهرة (المتوفى: ١٣٩٤هـ)_ دار النشر: دار الفكر العربي_بدون طبعة، بدون تاريخ.

(٢) ينظر لسان العرب مادة (ركم)

المبحث الثاني

من أسرار التعبير القرآني في امتنان الله تعالى بالجبال.

ورد لفظ (الجبال) في مقام الامتنان في مواطن عدة منها:

١-قَالَ تَعَالَىٰ:﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ الأعراف: ٧٤

٢-قَالَ تَعَالَىٰ:﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾﴾ الحجر: ٨٠ – ٨٢

٣- قَالَ تَعَالَىٰ:﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ الشعراء: ١٤٦ - ١٤٩

٤٤

٤- قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [النحل: ٨١].

٥-قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾﴾ النبأ: ٦ - ٧

٦-قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ النازعات: ٢٧ - ٣٣

الموضع الأول:

قال تعالى:﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٧٤﴾ الأعراف: ٧٤

ورد لفظ (الجبال) في الآية الكريمة في سياق الحديث عن دعوة سيدنا صالح _عليه السلام_ لقومه لعبادة الله –تعالى– وتذكيرهم بجعلهم خلفاءً لقوم عاد، ومذكِّرًا إيَّاهم بما مَنَّ الله –تعالى– عليهم من نعمه التي لا تُحصى، وأهمها تبوءتهم في الأرض يتخذون من سهولها قصورًا رفيعة، وينحتون من الجبال بيوتًا يسكنون فيها.

وأوَّل ما يلفت النظر في الآية هو التهديد المفاد من جملة ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ﴾ والتي تشير إلى تهديدهم ووعيدهم بالعذاب في الدنيا، يعني عذاب الاستئصال، كما حدث لأسلافهم من قوم عاد، **قَالَ تَعَالَىٰ:**﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ٧٢﴾ (الأعراف: ٧٢) لذا آثر النظم الكريم التعبير بكلمة (اذكر)، وهي كلمة تدلُّ على أن ما بعدها أمرٌ له شأن، ولا شكَّ أن تخويفهم بالعذاب المعجَّل في الدنيا أكثر زجرًا من التخويف بعذاب الآخرة؛ لأنهم ينكرون الآخرة كما صرّح بذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾، فكيف يخوَّفون بالنار مع عدم اعترافهم بها؟

وتهديدهم بقوم عاد خاصة؛ لأنهم أقرب الأقوام الهالكة إليهم، فقد كانوا خلفاءهم، وقد مكّنهم الله أرضهم وسكنوا مساكنهم، ثم إنهم كانوا أشدّ منهم قوة، فما أغنت عنهم قوتهم لمّا جاء أمر ربهم.

وجملة ﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ وعطفها على جملة ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ لبيان كيفية تبوءتهم في الأرض، وذلك بإظهار قدرتهم على بناء القصور في سهول الأرض ونحت البيوت من الجبال.

والمضارع ﴿وَتَنْحِتُونَ﴾ دليلٌ على استمرارهم في نحت البيوت من الجبال زمنًا طويلًا دون توقُّفٍ أو مَلل، مع ما في ذلك من استحضار صورة النحت، وما تدل عليه من التفوّق والبطش والقدرة، وفيه إشارة إلى قوتهم وطول أعمارهم؛ حيث يلجأون إلى الجبال لقوتها وصلابتها بما يتناسب مع قوتهم وطول مكوثهم في الدنيا، فقد قيل: "إنهم نحتوا الجبال بيوتًا لطول أعمارهم، وكانت الأبنية تُبلى قبل أن تُبلى أعمارهم"(١)

وعليه، فإن الجبال في الآية الكريمة كانت أصلًا مهمًا في إثبات نعمة الترف والحضارة والعمران التي علَّم الله _تعالى_ قوم صالح إياها، وميَّزهم بها عمَّن سواهم، فقد اتخذ سيدنا صالح_عليه السلام_ من الجبال أداةً لتذكير قومه بنعم الله _تعالى_ عليهم.

ويأتي في مقام الامتنان بذكر الجبال أيضًا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾﴾ الحجر: ٨٠ – ٨٢

فحديث القرآن الكريم عن الجبال –هنا– أتى أيضًا في سياق تعداد نعم الله –تعالى– على قوم صالح عليه السلام ﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ

(١) ينظر روح المعاني ج٤/ ٤٠٢ المؤلف: شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (المتوفى: ١٢٧٠هـ)– تحقيق: علي عبد الباري عطية– الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت_الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ

﴿بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ فكونهم لديهم المقدرة على صنع البيوت بهذه الصورة العجيبة، أي نحتهم البيوت من هذه الصخور الصلبة التي يصعب على الإنسان تشكيلها وتطويعها، واختصاصهم وتمييزهم بهذا الأمر، كل هذا من تمام نعم الله تعالى عليهم.

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ الشعراء: ١٤٦ - ١٤٩

فلمَّا كذَّبت ثمود المرسلين، أخذ صالح –عليه السلام– في تذكيرهم ببعض ما أنعم الله _تعالى_ عليهم من الحدائق والثمار والزروع، وتمكينهم من نحت البيوت من الجبال، فحذَّرهم من العاقبة إن هم استمروا في كفرهم وتكذيبهم، مستخدمًا في ذلك أسلوب النفي والإنكار المفاد من الاستفهام في جملة ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ﴾ أي نفي تركهم في هذا النعيم دون فزعٍ أو عقاب.

وكلمة ﴿فَٰرِهِينَ﴾ من الفراهة وهي النشاط والحذق والكياسة، والفارِهُ: الحاذق بالشيء، أي عارفين بنحت البيوت من الجبال، بحيث تصير بالنحت كأنها مبنية[1]

وفي هذا امتنان عليهم بالفراهة والكياسة والحذق التي وهبهم الله_تعالى_ إيَّاها في صناعة البيوت ونحتها من الجبال.

(١) ينظر لسان العرب لابن منظور مادة (فرُه)، والتحرير والتنوير ج١٩/١٧٥

وهكذا ورد ذكر الجبال في معرض الحديث عن تعداد النعم التي منَّ الله _تعالى_ بها على قوم صالح عليه السَّلام، بدلالة كلمة (آمنين) وكلمة (فارهين) حيث منَّ الله تعالى عليهم بنعمة الأمان والحذق والكياسة.

الموضع الثاني:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [النحل: ٨١].

ورد لفظ الجبال في الآية الكريمة في مقام تعداد النعم التي منَّ الله _تعالى_ بها على الإنسان، وهذه الآية تتصل اتصالًا وثيقًا بالآية السابقة عليها؛ فالآية السابقة تتحدث عن نعمة البيوت والسكن في قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ ﴾ النحل: ٨٠

ثم تُتابِع هذه الآية بيان ما يحتمي به الإنسان من الأذى، فالظل يحتمي به من حرارة الشمس، كما يتخذ من كهوف الجبال سترًا وحماية من الأذى، لذا جاء العطف بالواو لبيان تلك النعم الكثيرة، أي ومن نعمه سبحانه عليكم أيضًا أن جعل لكم مما خلق ظلالًا، إلى جانب ما تفيده (الواو) من التمايز والمغايرة، فهذه النعم وإن كانت جميعها تحمل معنىً واحدًا وهو السكينة، إلا أن العطف بالواو جعل كلًا منها وكأنَّها نعمةٌ مستقلةٌ بذاتها مختلفة عن أختها، فدلَّت على التكثير الدَّال على معنى التنعّم والرفاهية المقصود من معنى الامتنان.

والمقام وإن كان للامتنان وهو ما يناسبه لفظ (الرَّب) المنعم، إلا أن النظم الكريم آثر التعبير بعلم الأعلام لفظ الجلالة (الله)؛ لأن ما ذُكر بعده

من إيجاد الظل، وتهيئة الإنسان للقدرة على صنع البيوت من الجبال، وإيجاد السرابيل التي تَقي الإنسانَ من الحرّ، كلّ هذا يناسبه اسم (الله) العلم الجامع لكل الكمالات.

وتقديم اسم الله على الفعل (جعل)؛ لتخصيص تفرّده سبحانه بهذا الجعل، وأنه لم يشركه فيه أحد، وذكر (لكم) مع أنه معلومٌ من السياق؛ ليناسب به مقام الامتنان، ولبيان كمال العناية بالمخاطبين، أي أنَّ ما ذُكر من النعم إنما جُعل لأجلكم.

وجملة ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾وإن كانت تحمل معنى جملة ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾إلا أن تخصيص الجبال وسموّها بمكانة البيوت لتوفُّر الأمن والأمان بها، يجعلها أصلًا مهمًّا في تذكير الناس ببعض نعم الله _تعالى_ عليهم، فهي ملجأ لهم يتخذون منها بيوتًا وحصونًا.

الموضع الثالث:

قَالَ تَعَالَى:﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾﴾ [فاطر: ٢٧].

حديث القرآن الكريم عن الجبال –هنا– ورد في مقام إظهار تمام القدرة الإلهية عن طريق الإخبار بما منَّ الله _تعالى_ به على العباد من إنزال الماء الذي به حياة كل شيء، ومنه إخراج الثمار المتنوعة، ثمَّ خلْق الجبال بطرقها ومعالمها المتعددة.

وذكر الجبال مع اختلاف ألوانها في الآية الكريمة يعدّ من طباق التدبيج، جيء به لقصد الكناية عن تنوع الطرق، ما اشتبه منها وما كان واضحا.

وفي عطف الجبال على الماء بما فيه من المنافع التي لا تُحصى، والذي فيه حياة الأرض دليلٌ ظاهرٌ على أهمية الجبال ومنافعها، فجعل الجبال في مكانةٍ تضاهي مكانة الماء الذي به حياة الأرض، مستخدمًا في ذلك أسلوب الاستفهام التقريري بدلالته على أن ما بعده أمرٌ له شأن يستحقُّ الوقوف عليه والانتباه له، ويعضد ذلك التعبير بطريق الالتفات من الغائب ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ﴾ إلى المتكلم ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾، لإظهار تمام هذه القدرة العظيمة وهذا الصنع العجيب.

فإن قيل: ما الوجه في ذكر الجبال خاصة في مقابلة الماء؟

قلت: ربما توهَّم البعض أن اختلاف الثمار ناتجٌ من اختلاف التربة، يعني أن الماء النازل من السماء على أنواع مختلفة من التربة، كان سببًا في إخراج الثمار على أشكال متنوعة، فجاء الاستدلال بالجبال بأنها أيضًا متنوعة، ففيها جددٌ بيضٌ وجددٌ حمرٌ، فكان دليلًا على قدرة الله وعظمته؛ لأنها ليست على هيئةٍ واحدةٍ، أو في بقعة واحدة من الأرض لكنها متفرقة، فكانت محلَّ امتنانٍ وتوبيخٍ على إنكار إرادة الله أو الشك فيها.

ثم إن للجبال أهمية تضاهي أهمية الماء الذي به حياة الأرض؛ فالجبال بمنزلة الأوتاد التي تثبت الأرض وتمنعها من الاضطرابات.

وشيءٌ آخر، وهو أن الآية الكريمة من مقاصدها إظهار اختلاف البشر وتنوعهم، فكان ضربُ المثل بالماء الذي ينزل من السماء على الأرض فيخرج منها أنواع مختلفة من الثمار، وهذا نفسه حال البشر، فبالرغم من كونهم أبناء آدم -عليه السلام- وهم من جنسٍ واحدٍ إلا أنهم مختلفون في استجابتهم للرسل وإيمانهم بهم، فالكلام جاء على سبيل التسلية والتخفيف عن الرسول ﷺ بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾﴾ فاطر: ٢٥

فكما أن الماءَ واحدٌ، ومن مخرج واحد، إلا أن الثمار تخرج متنوعةً مختلفة، فكذلك حال البشر، يقول سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ فاطر: ٢٨

الموضع الرابع:

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾﴾ النبأ: ٦ – ٧

ورد ذكر الجبال _هنا_ في سياق تكذيب منكري البعث، وذلك على طريقة الامتنان بما أوجد الله _تعالى_ من هذه المخلوقات الدالة على عظيم قدرته، أي مَن كان قادرًا على هذا الصنع البديع بهذه الحال المدهشة، هل يمكن أن يعجزه إيجاد الخلق مرَّة ثانية؟

وتشبيه الأرض بالمهد في جملة: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ أي الفراش الذي يُهيَّأ للصبي مناسبٌ جدًّا للمقصود الأعظم من ذِكر الأرض في بداية الاستدلال على منكري البعث؛ إذ إن الأرض هي الأصل الأول في عملية البعث قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾﴾ (ق: ٤٤) وقوله سبحانه: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾﴾ المعارج: ٤٣

والاستفهام في جملة ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ﴾ تقريري، غرضه: إقرار المخاطبين بهذا الجعل، أي بكون الأرض مهادًا والجبال أوتادًا، وهذا الاستدلال على عظمته دليلٌ على أن البعث أصغر من الخلق الأول، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ غافر: ٥٧

وجملة: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ معطوفة على جملة: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾، والأوتاد: جمع وتد، وهو ما رُزَّ في الحائط أو الأرض من الخشب[1] وشُبِّهت الجبالُ بالأوتاد؛ لأنها تثبت الأرض وتحفظها من الاضطرابات.

والذي دعا إلى ذكر الجبال –هنا– وتشبيهها بالأوتاد عقب ذِكر الأرض؛ أنه قد يظن السامع أن وجود الجبال ونتوءها على سطح الأرض يتنافى مع كون الأرض ممهدة، فجاء تشبيه الجبال بالأوتاد لدفع هذا التوهم، ولإظهار فائدتها بالنسبة إلى الأرض.

وهكذا، جاء ذِكر الجبال في الآية الكريمة في مقام الامتنان بما هيَّأ الله _تعالى_ للناس من الأرض الممهدة، والجبال التي تعدُّ بمثابة الأوتاد التي تمسك الأرض وتحفظها، وفي هذا ما يدعو إلى النظر والتدبّر في تلك النعم؛ لمعرفة قدْر المنعِم وعظمته فيؤدّون حقَّه، ويمتثلون أمره.

الموضع الخامس:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ النازعات: ٢٧ – ٣٣

هذه الآية شبيهة جدًّا بالآية السابقة في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾﴾ النبأ: ٦ – ٧ فقد ورد فيها ذكر الجبال أيضًا في معرض الحديث عن منكري البعث ومخاطبتهم، على طريقة الاستدلال بخلق السماء والأرض والجبال، أي أأنتم أشدُّ خلقًا بعد الموت مرَّةً أخرى؟ أم خلق السماء بهذه الطريقة البديعة، وبسط الأرض وجعلها ممهدة للعيش عليها، ورسوّ الجبال في الأرض لتسكينها وتثبيتها؟

(١) ينظر لسان العرب لابن منظور مادة (وتد)

والاستفهام في ﴿ءَأَنتُمۡ﴾ تقريري، غرضه إقرار المخاطبيين بأن خلق السماء أشدّ وأعظم من خلقهم.

وقد ذكر الشيخ الطاهر في معنى إرساء الجبال قوله: أي "إثباتها في الأرض... وإثبات الجبال: هو رسوخها بتغلغل صخورها وعروق أشجارها لأنها خُلقت ذات صخور سائخة إلى باطن الأرض، ولولا ذلك لزعزعتها الرياح، وخُلقت تتخللها الصخور والأشجار، ولولا ذلك لتهيلت أتربتها، وزادها في ذلك أنها جُعلت أحجامها متناسبة، بأن خلقت متسعة القواعد ثم تتصاعد متضائقة، ومن معنى إرسائها: أنها جُعلت منحدرة؛ ليتمكَّن الناس من الصعود فيها بسهولة، كما يتمكَّن الراكبُ من ركوب السفينة الراسية، ولو كانت في داخل البحر ما تمكَّن الراكب من ركوبها إلا بمشقة". (١)

فإن قيل: ما وجه التعبير بالرسوّ في جملة ﴿وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا﴾ بينما جاء التعبير بالأوتاد في سورة النبأ في جملة: ﴿وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا﴾؟

قلت: إن إرساء الجبال فيه تفصيل يزيد على الأوتاد -كما بيّن الشيخ الطاهر في معنى الإرساء- وهذا مناسبٌ جدًّا لسياق التفصيل الحاصل في وصف السماء في قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ٢٧ رَفَعَ سَمۡكَهَا فَسَوَّىٰهَا ٢٨ وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا﴾ أما جملة ﴿وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا﴾ فلم يكن فيها هذا التفصيل، وهو مناسب أيضًا للإجمال الكائن فيما سبق من وصف الأرض، وتشبيهها بالمهاد في جملة: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا﴾، وهذا بدوره راجعٌ إلى أن التفصيل الدقيق الحاصل في

(١) ينظر التحرير والتنوير جـ٣٠/٨٨

سورة النازعات إنما كان لأجل المقام، فقد ورد عقب قول الطاغية فرعون: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ النـــازعات: ٢٤، لذا جاء الحديث عن خلق السماوات والأرض والجبال بهذه الصورة المفصلة؛ لبيان القدرة الهائلة والصنع العجيب، كأن قيل: إن كنت أنت الرَّب فماذا أنت صانع؟

والمتاع في جملة: ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾يصح أن يكون راجعًا لما سبق من البسط والتمهيد وإخراج الماء والمرعى، بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ الأعـراف: /٢٤، ويصح أن يكون راجعًا فقط لإرساء الجبال لأن المتاعَ غيرُ ظاهرٍ فيها، بخلاف الأرض فهو ظاهر، ووجه جعل الجبال متاعًا هو ما صرَّح به الشيخ الطاهر في قوله: "وأما الجبال فلأنها معتصمهم من عدوهم، وفيها مراعي أنعامهم، تكون في الجبال مأمونةٌ من الغارة عليها"(١) مع ما في الجبال من خصائص تحفظ بها توازن الأرض.

وكلمة ﴿مَتَٰعًا﴾ قيل: "مفعول له، أي فعل ذلك تمتيعًا لكم ولأنعامكم؛ لأن فائدة ما ذُكر من الدحو وإخراج الماء والمرعى واصلة إليهم ولأنعامهم، فإن المرعى مجازٌ عمَّا يأكله الإنسان وغيره، وقيل: مصدر مؤكد لفعله المضمر، أي متعكم بذلك متاعًا"(٢)

****

(١) ينظر التحرير والتنوير جـ٣٠/٨٨

(٢) ينظر روح المعاني للألوسي جـ

المبحث الثالث

من أسرار التعبير القرآني في حديثه عن استجابة الجبال.

ورد في معرض الحديث عن عبودية الجبال واستجابتها آيات عدَّة منها قوله تعالى:

١-﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ٨٨ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ٩٠﴾ {مريم:٨٨-٩٠}

٢-﴿ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلّٗا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ٧٩ ﴾ [الأنبياء: ٧٩].﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ١٨﴾ [ص: ١٨].

٣-﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ١٨﴾ [الحج: ١٨].

٤-﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣ ﴾ [الأعراف: ١٤٣

٥-﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٢١﴾ [الحشر: ٢١].

الموضع الأول:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾﴾ {مريم:٨٨-٩٠}

ورد لفظ الجبال في الآية الكريمة في مقام الحديث عن تفظيع ادّعاء الكافرين، وقولهم باتخاذ الرحمن ولدًا، ببيان أنَّ هذا القول في شناعته وثقله قد بلغ حدَّ التأثير في أقوى المخلوقات كالسماوات والأرض والجبال، فهذه المخلوقات في ضخامتها، وقوتها، وإحكامها، قد بلغت مبلغًا لا يُتصوّر معه وصفها بما ورد في الآيات الكريمة من الانفطار أو الانشقاق أو غيرها.

إن أول مايلفت النظر في الآية الكريمة، هو مجيء الأفعال: ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ ﴿وَتَنشَقُّ﴾ ﴿وَتَخِرُّ﴾ على صيغة المضارعة؛ لاستحضار واستشعار صورة انفطار السماوات، وانشقاق الأرض، وسقوط الجبال وهدّها؛ وذلك لبيان عظم هذا الأمر، وبلوغه في الشدّة مبلغًا عظيمًا، فالأمر ليس هيّنًا، بل هو أعجب وأعظم، فهو ادِّعاءٌ على الله _تعالى_ باتخاذه ولدا.

وكلمة ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ على وزن (تفعّل)؛ إشارة إلى المبالغة في حدوث الانفطار، وكأن السماوات يتشققن مرَّات عديدة، وهو ما يفيده التعبير بالمضارع _أيضًا_ حيث التجدد الاستمراري.

ومعنى ﴿وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾ أي تسقط وتتهدَّم، والتعبير بكلمة ﴿وَتَخِرُّ﴾؛ لما فيها من معنى السقوط من أعلى إلى أسفل، وهو ما يتناسب وعلوّ الجبال وارتفاعها، كما أن في التعبير بالجبال على هذا الوصف مع قوتها ورسوخها تأكيدًا على هول الأمر وعظمته لدرجةٍ جعلت الجبال التي هي أوتاد الأرض تسقط وتتهدَّم، فلمَّا كان قولهم هذا هو أعظم الدواهي وأنكرها، ناسب ذلك تأثّر تلك الأجرام العظيمة وتفتتها وانهيارها.

والتأثير بهذه الصورة العجيبة في تلك الأجرام العظيمة كناية عن عظيم غضبه وسخطه سبحانه، والذي كادت منه تبدّد الأجرام العظام التي بها قوام الدنيا، لذا أكّد الوصف بكلمة ﴿هَدًّا﴾؛ لأن الهدّ ليس وقوعًا فحسب، وإنما هو وقوعٌ من نوعٍ خاص، يشير إلى ثقل الجرم الموصوف به وعظمه، مما يُحدِث انزعاجًا بسببه؛ ذلك لأنه تساقط أجرام صلبة على أجرام صلبة، وعليه، فإن تساقط الجبال يعدّ من أشدّ أنواع التساقط على الإطلاق.

والكلام مبنيٌّ على طريقة الالتفات من الغائب في جملة: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا﴾ إلى الخطاب في جملة: ﴿لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا﴾ والالتفات هنا يفصح عن كمال السخط وشدّة الغضب عليهم من الله _تعالى_ إلى جانب توبيخهم، والتصريح بوقاحتهم وجهلهم عن طريق مخاطبتهم بطريقٍ مباشرة؛ لتنبيههم إلى فظاعة جرمهم، وأنهم قد جاءوا بأمرٍ عظيم تنكره العقول، لذا عبّر النظم الكريم بفعل المجيء ﴿جِئۡتُمۡ﴾دون أتى؛ فإن المجيء يكون في الأمور الصعبة، يقول الرَّاغب: "والمجيء كالإتيان، لكنَّ المجيءَ أعمّ؛ لأنّ الإتيان مجيءٌ بسهولة، والإتيان قد يُقال باعتبار القصد وإن لم يكن منه الحصول، والمجيء يقال اعتبارًا بالحصول"[1] فهو آكد في حصول الفعل منهم.

هذا، والتعبير بالجبال في إطار الحديث عن بطلان ادِّعاء الكافرين وتفظيع قولهم _وهو اتخاذ الرحمن ولدًا_ قد دعا إليه السياق؛ فقد كان لهذا القول في تلك الجبال الضخمة أثرٌ بالغٌ جعلها تتساقط وتتهدّم نتيجةً لهذا القول، فلمَّا كان القولُ عظيمًا، جاء الاستدلال بما هو أعظم، حيث

(١) ينظر المفردات في غريب القرآن لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (المتوفى: ٥٠٢هـ) جـ١/٢١٢- تحقيق: صفوان عدنان الداودي- دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت- الطبعة: الأولى – ١٤١٢هـ

السماوات والأرض والجبال التي هي من أعظم المخلوقات، والتي بها قوام الدنيا، فـ "هذا تقريرٌ لكونه إدًّا، والمعنى: أن هَولَ تلك الشنعاءِ وعِظمَها، بحيث لو تَصوّرتْ بصورةٍ محسوسةٍ لم تُطِقْ بها هاتيك الأجرامُ العظام، وتفتَّتتْ من شدَّتها، أو أن فظاعتَها في استجلاب الغضَبِ واستيجابِ السَّخَط، بحيث لولا حِلْمُه تعالى، لخُرِّب العالمُ، وبُدِّدت قوائمُه غضبًا على مَنْ تفوَّه بها"(١)

الموضع الثاني:

١- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

٢-وقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾﴾ [ص: ١٨].

ورد لفظ الجبال في الآية الكريمة في مقام الحديث عمَّا خصّ الله _تعالى_ به سيدنا داود _عليه السلام_ من تسخير الجبال والطير له، قال ابن كثير: " وَذَلِكَ لِطِيبِ صَوْتِهِ بِتِلَاوَةِ كِتَابِهِ الزَّبُورِ، وَكَانَ إِذَا تَرَنَّم بِهِ تَقِفُ الطَّيْرُ فِي الْهَوَاءِ، فَتُجَاوِبُهُ، وتَرد عَلَيْهِ الْجِبَالُ تَأْوِيبًا"(٢)

وإسناد التسخير إلى (نا) الفاعلين، يفصح عن عظمة تسخير وإخضاع الجبال لداود _عليه السلام_ فلما كان أمر تسخيرها عجيبًا، أُسند

(١) ينظر تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم جـ ٢٨٢/٥ لأبي السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (ت: ٩٨٢هـ)- دار إحياء التراث العربي – بيروت

(٢) ينظر تفسير القرآن العظيم جـ ٣٥٨/٥ المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري المحقق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م

الفعل إلى الضمير المعظم لنفسه؛ ليزيل الغرابة والعجب؛ لكونه من فعل الخالق، الذي بيده تسخير كل المخلوقات، ما عظم منها وما صغر.

وجملة ﴿يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ استئناف بياني، كأن قيل: وما كيفية التسخير؟ فأجيب: يسبحن، والتسخير فيه معنى الخضوع والإذلال، وفي تقديم الجبال على الطير يقول الإمام الزمخشري: "لأنّ تسخيرها وتسبيحها أعجب وأدلّ على القدرة وأدخل في الإعجاز؛ لأنها جماد والطير حيوان، إلا أنه غير ناطق"(١)

والتعبير بالمضارع ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ دليلٌ على استمرار تسبيح الجبال معه _عليه السلام_ إذا سبَّح، لذا جاء قوله تعالى: ﴿ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝١٠﴾ [سبأ:/ ١٠].

فالتأويب كما يقول الشيخ الطاهر يعني: "الترجيع، مشتق من الأوب وهو الرجوع، وكذلك الطير إذا سمعت تسبيحه، تغرِّد تغريدًا مثل تسبيحه، وتلك كلّها معجزة له"(٢) كما أن في التعبير بالمضارع إشارةً إلى استحضار تلك الصورة العجيبة المعجزة، أي صورة تسبيح الجبال معه، فالتعبير بالمضارع يَسبح بنفس المتلقي لإدراك ماهية التسبيح وكيفيته.

وتقديم الظرف ﴿مَعَ دَاوُۥدَ﴾ على ﴿ٱلْجِبَالَ﴾ لأن المقصود الأهمّ من السياق هو إظهار النعم التي امتنَّ الله تعالى بها على داود _عليه السَّلام_ فكان في تأخير ذكر الجبال تشويقٌ لمعرفة تلك الكرامات التي خُصَّ بها عليه السلام دون غيره، إلى جانب كونها معجزة خارقة، فكان في تقديم ذكره عليه السلام مزيدُ تكريمٍ وتشريفٍ، وأنه عليه السلام أعظم وأجلّ من عظم تلك المعجزة الخارقة.

(١) ينظر الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل جـ ١٢٩/٣

(٢) ينظر التحرير والتنوير جـ١١٩/١٧

والتعبير بكلمة ﴿مَعَ﴾ في جملة ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ﴾دون اللام، لدفع توهم أن يكون المقصود من ذكر الجبال هو اقتصار منفعتها على داود _عليه السلام_ وأنها قد جُعلت له خاصة، لذا جاءت جملة ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ لبيان كيفية تسخير الجبال له عليه السلام.

الموضع الثالث:

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾ [الحج: ١٨].

ورد لفظ الجبال في الآية الكريمة في مقام الاستدلال على انفراد الله _تعالى_ بالألوهية، فكل المخلوقات تسجد لله _تعالى_ وحده، سواء ما كان منها في العالم العلوي، أم ما كان منها في العالم السفلي.

وقد ذكر الإمام البقاعي في وجه اتصال هذه الآية بما قبلها: أنه "لمَّا كان جميع ما تقدَّم في هذه السورة دالاً على أنه على كل شيءٍ قدير، وأنه يفعل ما يريد، وختم ذلك بأنه بكل شيءٍ عليم، لم يغِبْ ولا يغيب شيء عنه، فاقتضى ذلك قيّوميته، وكان بحيث يُستعظم لكثرة الخلائق فكيف بأحوالهم؟ قرَّر ذلك في جواب مَن كأنه سأل، فهي في معنى العلة، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ﴾ أي الحائز لجميع الكمال المبرَّأ عن كل نقص ﴿يَسْجُدُ لَهُۥ﴾ أي يخضع منقادًا لأمره مسخرًا لما يريد منه من تسخير"(١).

(١) ينظر نظم الدرر في تناسب الآيات والسور جـ٢٥/١٣ تأليف: إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (المتوفى: ٨٨٥هـ)- دار الكتاب الإسلامي- القاهرة.

والسجود معناه: "الخضوع والانقياد التام لتدبيره تعالى"[1] وهو يعدّ أقصى درجات الطاعة والخضوع، وفي استعمال (مَن) في جملة ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ من باب تغليب العاقل على غيره، وفي عطف ﴿وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ﴾ على ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وتخصيصها بالذكر؛ لأنها أشهر الأجرام العلوية وأظهرها لدى البشر، ثم إنها "قَدْ عُبدت مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَبَيَّنَ أَنَّهَا تَسْجُدُ لِخَالِقِهَا، وَأَنَّهَا مَرْبُوبَةٌ مُسَخَّرَةٌ"[2]

وقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ﴾ استئنافٌ مسوقٌ للدلالة على انفراد الله _تعالى_ بالألوهية، فلما أكَّد النظمُ على قدرته سبحانه على الفصل بين المؤمنين وغيرهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ١٧﴾ الحج: ١٧ أنكر على المخاطبين عدم علمهم بأحوال المخلوقات، فجاء قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ مستدلًا بذلك على قدرته سبحانه، وتفرُّده بالسيطرة والهيمنة على الكون كلِّه.

ويصح أن يكون الخطاب للرسول _ﷺ_ فيكون الاستفهام تقريريًا غرضه الإقرار بعلم ذلك، أي الإقرار بسجود من في السماوات ومن في الأرض.

(١) ينظر تفسير أبي السعود جـ ١٠٠/٦

(٢) ينظر تفسير القرآن العظيم جـ٤٠٣/٥ المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)- المحقق: سامي بن محمد سلامة- الناشر: دار طيبة – الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩ م

وجملة ﴿وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾بالعطف على جملة﴿وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، من باب ذكر الخاص بعد العام، ومناسبة ذكر الجبال في الاستدلال على قدرة الله _تعالى_ وتفرّده بالألوهية قد دعا إليها ذكر الأرض، وذلك لعدّها ركنًا رئيسًا وجزءًا مهمًا منها، فالناس جميعا يعرفون شدَّة الجبال وقوتها وأهميتها ومكانتها، لذا صُدِّر بها الحديث عن سجود المخلوقات الأرضية؛ لبيان أنها مع قوتها وضخامتها قد استجابت لأوامر الله _تعالى_ وتدبيره فكانت أول ساجدٍ على الأرض.

الموضع الرابع:

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۖ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣﴾ [الأعراف: ١٤٣].

ورد ذكر الجبال في الآية الكريمة في مقام الحديث عن تعظيم أمر رؤية الله _تعالى_ في صورةٍ فريدة من نوعها، تُفصح عن عظمة الله _تعالى_ وجلاله وهيبته، ببيان أنه إذا كان الجبل الذي هو أعظم وأقوى مخلوق من الإنسان، سوف يُهدّ ويصير ترابًا عند تجلِّي ربنا سبحانه، فما بال الإنسان بضعفه أمام الجبل ؟

والمقصود بالميقات في الآية الكريمة: أي الوقت الذي وقّته الله _تعالى_ بعد تمام الأربعين ليلة في قوله تعالى: ﴿ وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٤٢﴾ الأعراف: ١٤٢

فسيدنا موسى –عليه السلام– بعد أن كلَّمه ربُّه "اشْتَاقَ إِلَى رُؤْيَتِهِ لمَّا أسمعه كلامه"[1] فسأل ربَّه النظر إليه، فقال سبحانه: ﴿لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي﴾ فأحال سبحانه الأمر إلى الجبل؛ لكونه أشدّ وأقوى من الإنسان،

"أي أجابه ربُّه لن تستطيع رؤيتي في الدنيا؛ فإن هذه البنية البشرية لا طاقة لها بذلك، ولكنْ سأتجلّى لما هو أقوى منك وهو الجبل، فإن ثبت الجبل مكانه ولم يتزلزل فسوف تراني، أي تثبت لرؤيتي، وإلاّ فلا طاقة لك ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ أي فلما ظهر من نور الله قدر نصف أنملة الخنصر، اندك الجبل وتفتّت"[2]

والتعبير بالرؤية والنظر معًا في جملة ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ دليل على طلبه عليه السلام التمكُّن من رؤيته سبحانه، لأن مجرَّد النظر لا يعني الرؤية، وإنما هي مسببة عنه، فقد يُنظر إلى الشيء ولا تحصل رؤيته، فـ "النظر تقليب الحدقة نحو الشيء التماسًا لرؤيته، والرؤية: الإدراك بالباصرة بعد التقليب"[3]

ومجيء (إن) الشرطية مع الماضي في جملة ﴿فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ﴾ لاستبعاد استقرار الجبل، واستحالة حصول ذلك منه عند التجلِّي، وجملة

(١) ينظر تفسير القرطبي جـ٢٧٨/٧ (ت:٦٧١هـ)– تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش– الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة –الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤ م

(٢) ينظر صفوة التفاسير جـ ٤٣٥/١ حمد علي الصابوني–الناشر: دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة– الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م

(٣) ينظر روح الامعاني جـ٤٤/٥

﴿فَسَوْفَ تَرَىٰنِي﴾للتأكيد على عدم حصول الرؤية؛ لأنها ترتبت على الشرط الذي يستحيل وقوعه.

والتعبير بالمصدر ﴿دَكًّا﴾ محلَّ المفعول أي مدكوكًا؛ يعكس صورة تفتت الجبل وانهياره، الذي بلغ أقصى درجة الانهيار حتى صار ترابًا، وكأنه استوى بالأرض واتصل بها.

هذا، وورود الجبل بهذه الصورة وهذا المشهد العجيب، يرينا تلك القدرة الإلهية الدالة على عظمة وجلال ربنا سبحانه، التي لم يستطعها هذا الجبل الضخم بقوته وصلابته، بل تهدّم وتفتت حتى صار كأن لم يكن أمام هذا التجلي، فضلا عن هذه القدرة البشرية التي لا تقوى على مثل هذا التجلي وهذه العظمة الإلهية، لذا جاء قوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ .

الموضع الخامس:

قَالَ تَعَالَىٰ:﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر: ٢١].

ورد لفظ الجبل في الآية الكريمة في إطار الحديث عن عظمة القرآن الكريم على طريقة توبيخ وتبكيت الإنسان على عدم خشوعه وتدبره عند قراءته، بل وإعراضه عنه بما فيه من الدلائل والمواعظ والعجائب الداله على القدرة الإلهية العظيمة، ببيان ما في القرآن الكريم من تأثير عجيب، يقول الإمام القرطبي: "فَإِنَّهُ لَوْ خُوطِبَ بِهَذَا الْقُرْآنِ الْجِبَالُ مَعَ تَرْكِيبِ الْعَقْلِ فِيهَا

لَانْقَادَتْ لِمَوَاعِظِهِ، وَلَرَأَيْتَهَا عَلَى صَلَابَتِهَا وَرَزَانَتِهَا خَاشِعَةً مُتَصَدِّعَةً، أَيْ مُتَشَقِّقَةً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ"(١).

وهذه الآية من باب المثل، بدليل جملة ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ومما يؤكد ذلك: التعبير بكلمة (لو) الدالة في أصل وضعها على الفرض والاحتمال، والغرض من هذا التمثيل هو: "توبيخ الإنسان على قسوة قلبه، وعدم تأثره لهذا الذي لو أنزل على الجبل لتخشع وتصدَّع، وإذا كان الجبل على عظمه وتصلبه يعرض له الخشوع والتصدع، فابن آدم كان أولى بذلك، لكنه على حقارته وضعفه لا يتأثر"(٢).

والتعبير بكلمة (أنزل) من غير تضعيفٍ، مشعرٌ بنزوله جملة واحدة دون تجدد أو استمرار، وذلك خلافًا للفعل المضعف (نُزِّل) الدال على التكرار والتجدد كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ﴾ الفرقان:/ ٣٢ ، فلما كان نزول القرآن على الجبل على سبيل التمثيل والفرض، ناسبه التعبير بلفظ الإنزال دون تضعيف، أما نزوله على الرسول _ﷺ_ فكان على جهة الحقيقة، فناسب ذلك اختلاف الفعلين.

ولمَّا كان المقصود الأعظم من الآية الكريمة هو توبيخ القاسية قلوبهم، المعرضين عن القرآن الكريم وما فيه من المواعظ، عبر باسم الإشارة (هذا) بدلالته على القرب؛ لبيان أنه قريب منهم، فلا مشقة ولا جهد في الوصول إليه، وإنما هو بين أيديهم، ففيه تعريض بأن رفضهم إنما يكون عن قصدٍ منهم ورغبة.

(١) ينظر تفسير القرطبي جـ١٨/٤٤

(٢) ينظر البحر المحيط جـ ١٠/١٤٩

وتنكير الجبل ﴿عَلَىٰ جَبَلٍ﴾؛ لقصد التهويل والتعظيم، أي الجبل الذي بلغ الغاية في الصلابة والشدّة، وهذا مناسب جدًا للتصريح بلفظ الجبل، الذي هو أقوى المخلوقات وأشدّها صلابة وقوة، كما أن التنكير هنا أيضا يفيد العموم والشمول، يعني عموم الجبال، وليس جبلًا بعينه.

وإيثار التعبير باسم الفاعل ﴿خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا﴾؛ لإفادة المبالغة في حصول صفة الخشوع والتصدّع وثبوتها، أي بلوغ الخشوع والتصدّع أعلى غاياته، وهذه الصورة تعكس مدى تأثير القرآن الكريم وعظمته حتى على أقوى المخلوقات وأعظمها، مما يؤكد على المبالغة في التوبيخ والتبكيت لأولئك المعرضين.

****

المبحث الرابع
من أسرار التعبير القرآني في وصفه لأهوال القيامة بصنيعه في الجبال

في هذا المبحث، يتحدث القرآن الكريم عن أهوال يوم القيامة وما يحدث فيه للجبال، تلك المخلوقات العظيمة القوية الصلبة، التي يستحيل على الذهن إدراكها أو تصورها على مثل هذه الأحوال التي تصير إليها، فالقرآن الكريم يرسم صورة الجبال يوم القيامة، حين تكون سرابًا كأن لم تكن، وأوَّل هذه الأحوال **قوله تعالى:** ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾ [الكهف: ٤٧].

فقد ورد لفظ الجبال في الآية الكريمة في مقام الحديث عن أهوال يوم القيامة، وما يُحدثه الله عز وجل في الجبال، وهذا من أحوال تبدّل نظام الكون وتغييره، وهذه الصورة تعكس الشعور بالخوف والفزع الذي يستقر في القلوب من أهوال هذا اليوم، فعرض صورة الجبال مع كونها أقوى المخلوقات وأشدّها صلابة في هذه الصورة الهشَّة الضعيفة، يعكس قوة الموقف وصعوبته وشدته.

وتسيير الجبال أي إزالتها من على وجه الأرض، وتسييرها كما يسير السحاب، ثم تكسيرها وإعادتها إلى الأرض، وقيل: إن التسيير معناه: تناثر أجزاء الجبال، فيكون كما في قوله تعالى: "وتكون الجبال كالعهن" ويصح أن يكون المعنى على حمل الجبال ثم تصييرها هباء[1]

---

(١) ينظر تفسير القرطبي جـ١٠/٤٢٦، والتحرير والتنوير ج١٥/٢٣٥، والتسهيل لعلوم التنزيل جـ١/٤٦٧

لأبي القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الغرناطي (ت:٧٤١هـ) تحقيق: الدكتور عبد الله الخالدي، الناشر: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت– الطبعة: الأولى – ١٤١٦ هـ

وتسيير الجبال بطريقة المضارع ﴿نُسَيِّرُ﴾؛ لاستحضار صورة تسيير الجبال، وقد قُلعت من أماكنها، مع ما في ذلك من إدراك الموقف وشدته.

والتعبير بصيغة الجمع ﴿ٱلْجِبَالَ﴾؛ ليشمل التسيير كلَّ جبلٍ على وجه الأرض، فلم يبق منها أيُّ جبل.

وإيثار الجبال في هذا الموقف العظيم دون ذكر أي نوع من المخلوقات كالزروع وغيرها؛ لأن الجبال رمز المتانة والثبات في الأرض، فهي الأوتاد التي بها تتزن الأرض وترتكز، فإذا حصل لها ما ذُكر من التسيير بهذا الوصف، كان دليلًا على أن الأَوْلَى زوال كل ما عداها من على وجه الأرض، بدليل جملة: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾فإن بروز الأرض يعني: زوال كل ما عليها لتُرى على هذه الحال.

وفي مجيء﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾ بلفظ الماضي بعد التعبير بالمضارع في ﴿نُسَيِّرُ﴾ يقول صاحب الكشاف: للدلالة على أن الحشر إنما يكون قبل تسيير الجبال؛ ليتحقق لديهم هذا الموقف المفزع، بمعاينة هذه الأهوال ورؤيتها رأي العين[1] فقد جاء في سورة النبأ قوله تعالى:﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾ النبأ: ١٨ - ٢٠

فدلَّ على أن الحشر كان أولًا، ثم يأتي بعده تبدُّل أحوال المخلوقات، وقد شبَّه القرآن الكريم الجبال في هذه الحالة بالسراب في قوله تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾حيث أُزيلت من أماكنها حتى بَدَتْ لناظريها وكأنها سراب، يراها الناظر إليها شيئًا وهي ليست كذلك، بل نُسفت حتى لم يبقَ منها أي شيء، يقول القرطبي: صارت الجبال بعد نسفها

(١) ينظر الكشاف للزمخشري جـ ٧٦٢/٢ بتصرف

وإزالتها من مواضعها هباءً منبثًا لعين الناظر، كالسراب الذي يظنه من يراه ماءً وهو في الحقيقة هباء.

ومن أحوال الجبال أيضا في يوم القيامة قوله تعالى:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧]

فقد ورد ذكر الجبال في الآيات الكريمة في معرض الحديث عن منكري البعث، وذلك بسؤالهم عن الجبال ما مصيرها؟ وأين تكون يوم يُنفخ في الصور؟ وكانت حجتهم في ذلك: أن الجبال من أشدِّ المخلوقات قوةً ومتانةً وأطولها لبثًا وأبعدها مكثًا، فتمنع البعض من سماع النفخ في الصور(١).

والتعبير عن سؤالهم بالمضارع﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾ لأن سؤالهم لم يقع حقيقة، وحصوله منهم سيكون مستقبلًا، وإنما أُخبر به الرسول ﷺ من قبل ربنا _سبحانه_ لعلمه تعالى بما سيكون، فالكلام على تقدير: إذا سألوك فقل لهم ذلك.

ولما كان الحديث عن منكري البعث، أي منكري أصلًا من أصول الشريعة، جاء الأمر بالجواب مقرونًا بفاء التعقيب والسرعة ﴿فَقُلْ﴾، وقد أشار الإمام الرازي إلى ذلك بقوله: "إِنَّمَا قَالَ: فَقُلْ مَعَ فَاءِ التَّعْقِيبِ؛ لِأَنَّ مَقْصُودَهُمْ مِنْ هَذَا السُّؤَالِ الطَّعْنُ فِي الْحَشْرِ وَالنَّشْرِ، فَلَا جَرَمَ أَمَرَهُ بِالْجَوَابِ مَقْرُونًا بِفَاءِ التَّعْقِيبِ، لِأَنَّ تَأْخِيرَ الْبَيَانِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ الْأُصُولِيَّةِ غَيْرُ جَائِزٍ، أَمَّا فِي الْمَسَائِلِ الفروعية فجائزة"(٢).

(١) ينظر مفاتيح الغيب جـ ٢٢/١٠٠

(٢) ينظر لسان العرب لابن منظور مادة (نسف)

فلما كان المقامُ مقامَ إنكارٍ، زادت حدَّة الألفاظ وشدتها، لذا نجد التعبير بكلمة ينسف ﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ والنسف: انتساف الريحِ الشيءَ كأنها تسلبه، والنسف: القلع، وناقة نسوف: أي تنسف التراب في عدوها، وانتسف البناء: استأصله، واقتلعه، والنسف فيه معنى التفريق(١).

وعليه، يكون المعنى: أن الله _تعالى_ يمحق الجبال ويزيلها تمامًا فلا يبدو لها أثرًا، حتى تصبح الأرض من بعدها قاعًا صفصفًا، أي مستوية ملساء بارزة لا يتوارى عليها شيء، وقيل: إن معنى ﴿ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾ "أَنَّهَا تَنْدَكُّ فِي مَوَاضِعِهَا وَتُسَوَّى مَعَ الْأَرْضِ، حَتَّى تَصِيرَ فِي مُسْتَوَى أَرْضِهَا، وَجُمْلَةُ ﴿ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾ حَالٌ مُؤَكِّدَةٌ لِمَعْنَى ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ لِزِيَادَةِ تَصْوِيرِ حَالَةٍ فَيَزِيدُ تَهْوِيلُهَا"(٢) وكلمة (قاع) مناسبة جدًّا لهذه الصورة العجيبة؛ فالجبال الرواسي على ضخامتها وارتفاعها قد نُسفت من مكانها وصارت هباءً منثورًا، فإذا بها قاعًا وانخفاضًا بعد شموخ وارتفاع.

وشبيه جدًّا بهذه الآية قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ۝١٠﴾ [**المرسلات**: ١٠]. فقد وردت الآية الكريمة ضمن جواب قسم الله _تعالى_ على تأكيد وقوع ما توعَّد به سبحانه من البعث والحساب في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ۝١٠ ﴾ المرسلات: ١ - ١٠

(١) ينظر مفاتيح الغيب جـ ١٠٠/٢٢

(٢) ينظر التحرير والتنوير جـ٣٠٧/١٦

ومن مظاهر تبدّل أحوال الكون يوم القيامة أيضًا: صورة الجبال وقد أصبحت هباءً منبثا، قال تعالى:﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦﴾ سورة الواقعة: ٤ -٦

فالقرآن الكريم _هنا_ يتحدث عن تلك الأهوال المصاحبة لذلك اليوم المهيب، يوم القيامة، الذي تُبدَّل فيه الأرض غير الأرض، حيث تُرجُّ وتهتزُّ بقوةٍ تنخلع معها الأوتاد وتُفتت حتى تصير هباءً منبثًا.

وبَسُّ الجبال: أي تفتيتها حتى تصير كالسويق الملتوت، من قولهم: بسَّ السويق إذا لتّه، والبسّ: التقليب، والهباء: هو الهواء المختلط بالأتربة والرمال مع انعكاس شعاع الشمس(١)

فالقرآن الكريم يصوّر الجبال الضخمة الصلبة، الموسومة بالرسوخ والاتزان والمتانة في صورة الغبار الهشّ الضعيف الذي يتصاعد ويتطاير في الهواء، فيدور في كل اتجاه مع أشعة الشمس.

هذه الصورة العجيبة التي تعكس حالة الوهن والضعف التي تصير إليها الجبال مع كونها من أعظم وأقوى المخلوقات، دليل على هول الموقف وصعوبته، كما أن اختيار النظم لتلك الألفاظ القوية في دلالتها على السيطرة والتمكين كالرَّج والبسّ، يعكس للمتلقي صورة الأرض الراسخة الثابتة بأوتادها وقد اقتلعت من جذورها، وصارت في قبضة مَن بيده أمرها، يُصيِّرُها كيف يشاء، وكأنها تُطوى كطيّ السجل.

(١) ينظر مفاتيح الغيب جـ ٣٨٦/٢٩ وتفسير البيضاوى= أنوار التنزيل وأسرار التأويل جـ ١٧٧/٥ تأليف: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (المتوفى: ٦٨٥هـ)- تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي - دار إحياء التراث العربي - بيروت- الطبعة: الأولى - ١٤١٨هـ.

كما أننا نستشعر حجم الواقعة حين ترج الأرض رجًّا، وتبسُّ الجبال بسًّا، وذلك بتأكيد الفعل بالمصدر؛ للدلالة على تحقّق وقوع الفعل وتأكيده بما يشعره اللفظ من التكرار الدال على تعظيم الفعل وتهويله.

وينبغي أن نلحظ تلك المفارقة العجيبة حين حُذف الجواب فقيل: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجّٗا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا﴾ ولم يُذكر ما يكون بعد رجّ الأرض وبسّ الجبال، ولا شكَّ أن هذه الأمور تعدُّ مقدمةً لتلك الأهوال التي تأتي بعدها، وأنها من شدَّتها قد ضاق المقام لذكرها، فلم تقم بها ألفاظ أو عبارات.

ورجّ الأرض وتحريكها بشدَّة، يحمل معنى الاندكاك المصرَّح به في قوله تعالى:﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ۝١٣ وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ ۝١٤ فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَٰقِعَةُ ۝١٥﴾الحاقة: ١٣ – ١٥

يقول الإمام الألوسي في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾ "شروع بيان نفس الحاقة، وكيفية وقوعها إثر بيان عظم شأنها بإهلاك مكذبيها، والمراد بالنفخة الواحدة النفخة الأولى التي عندها خراب العالم"(١)

والاندكاك هو أوَّل أحوال الجبال يوم القيامة كما يرى الإمام أبو حيان، وجملة: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ﴾ معطوفة على جملة ﴿نُفِخَ﴾ الواقعة في حيِّز الشرط، ومعنى حمل الأرض والجبال ودكّهما: أي رفعهما وتحريكهما بالرَّج والزلزلة كما ورد في آية ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجّٗا﴾ وقيل: "إن هذا يكون بريحٍ بلغت من قوَّة عصفها أنها تحمل الأرض والجبال"(٢) ودكّ الأرض والجبال أي جعلهما شيئًا واحدًا، وذلك لأن رجّ الأرض بالجبال

(١) ينظر روح المعاني جـ ٤٩/١٥

(٢) ينظر مفاتيح الغيب جـ ٦٢٥/٣٠

التي هي نتوءات بارزة على وجه الأرض، يجعلها تتفتت إلى أجزاء صغيرة، تندمج مع سطح الأرض حتى يصيرا شيئًا واحدًا، فتبدو الأرضُ مستويةً بارزةً لا شيء عليها، قال تعالى: ﴿ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ ﴾ طه: ١٠٧ وتفتُّت الجبال يعدّ أول مراحل تسوية الجبال بالأرض وتصييرهما شيئًا واحدًا، لذا عبر بلفظ الدَّكّ؛ لأن به تجتمع أجزاء الأرض مع الجبال لتكون كتلة واحدة، وعليه فقد جاء التعبير بالوصف ﴿دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ لتأكيد الدك الذي يصيران به شيئًا واحدًا أي جسمًا واحدًا مستويًا.

ومن صور الجبال في يوم القيامة _أيضًا_ كونها كثيبًا مهيلًا، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ ﴾ المزمل:١٤

يعني أنها تتحرك حركة شديدة وتضطرب، فتصبح الجبال على صلابتها تلًّا من الرمل متناثرًا، أي تصير الجبال ككثبان الرمال بعد أن كانت حجارة صمَّاء(١)

فجعل الجبال التي تبدو بقوتها وضخامته كثيبًا مهيلًا أي رملًا مجتمعًا، ولا شكَّ أن تصوير هذه المخلوقات الصلبة المتحجرة في صورة رمال مجتمعة، يعكس هشاشتها وضعفها في ذلك الوقت، لا سيما أن صورة الرمال مهما عظمت، إلا أنها لا تصل إلى تلك القوة التي تكون عليها الحجارة، وأنها حين تصير على هذه الحالة يكون ذلك أول أسباب خرورها.

وفي حديث القرآن الكريم عن أهوال القيامة، لم يعرض النظم القرآني صورة الجبال المعهودة، أعني صورتها القوية الصلبة، وإنما يعرض مباشرة لصورتها الهشة الضعيفة، فالرمال أجزاء متفرقة وليست مترابطة، وقد صيَّرها

(١) ينظر أوضح التفاسير ٧١٧/١_المؤلف: محمد محمد عبد اللطيف بن الخطيب (ت: ١٤٠٢هـ) الناشر: المطبعة المصرية _الطبعة: السادسة، رمضان ١٣٨٣ هـ – فبراير ١٩٦٤م.

إلى هذه الحالة رجف الأرض، وزلزلتها بقوة، حتى اضطربت الجبال واندكت وتناثرت أجزاؤها، فصارت رمالًا متناثرة تذروها الرياح.

وكلمة ﴿مَّهِيلًا﴾: "اسم مفعول من هال الشيء هيلا، إذا نثره، وفرَّقه بعد اجتماعه، والشيء

المهيل: هو الذي يُحرَّك أسفله، فينهار أعلاه ويتساقط بسرعة"(١) "يُقَالُ: أَهَلْتُ الرَّمْلَ أُهِيلُهُ هَيْلًا إِذَا حَرَّكْتُ أَسْفَلَهُ حَتَّى انْهَالَ مِنْ أَعْلَاهُ"(٣) وتحريك أسفل الجبال إنما يكون نتيجة الرجفة والزلزلة التي تحدث في الأرض، مما يؤدي إلى تفتتها وانهيارها، بل سيلانها وتحدّرها.

وفي الآية تعريض بالمكذبين، وكأن قيل: إذا كان هذا صنيعنا في هذه المخلوقات العظيمة فكيف بالمكذبين الضعفاء ؟!

فهذا تهديدٌ واضحٌ بمحاسبتهم وتعذيبهم، بدليل التصريح بأحوال السابقين وما حلّ بهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ١٥ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ١٦﴾ المزمل: ١٥ - ١٦

وإيثار التعبير بكلمة ﴿كَثِيبًا﴾؛ لما تدل عليه من معنى الدقة والهشاشة، فما سمِّي الكثيب كثيبًا إلا لدقة ترابه، وكأنه مكثوب منثور بعضه على بعض، فربنا _سبحانه_"يُفَرِّقُ تَرْكِيبَ أَجْزَاءِ الْجِبَالِ وَيَنْسِفُهَا نَسْفًا، وَيَجْعَلُهَا كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَصِيرُ كَالْكَثِيبِ، ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى يُحَرِّكُهَا عَلَى مَا قَالَ: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةٗ﴾ الكهف: ٤٧ وَقَالَ: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ﴾ النمل: ٨٨

(١) ينظر التفسير الوسيط للقرآن الكريم جـ١٦٢/١٥ لمحمد سيد طنطاوي_دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة_الطبعة: الأولى

وَقَالَ: ﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۝٢٠ ﴾ النبأ: ٢٠ فَعِنْدَ ذَلِكَ تَصِيرُ مَهِيلًا"(١)

وفي التعبير بلفظ المضارع ﴿ تَرْجُفُ ﴾؛لاستحضار صورة الرَّجف والاضطراب في هذا الموقف العصيب، فدلَّ به على مدى الهول الذي يلحق بالمخلوقين، وفي مخالفة أسلوب جملة ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴾ لطريقة المضارع كما في جملة ﴿ تَرْجُفُ ﴾؛ للتأكيد على تحقُّق وقوع هذا الأمر الغريب، الذي لم يعهده الخلق، ولم يروه بهذه الصورة العجيبة رأي العين، بخلاف رجف الأرض وزلزلتها، فإن هذا الأمر معهودٌ مشاهَد، وإن اختلف مقداره وعظمته، فمعلوم أنَّ أهوال يوم القيامة لا تقارن بأحداث الدنيا.

ومن صور الجبال أيضا يوم القيامة أنها تصير كالعهن المنفوش،

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥ ﴾ القارعة: ١- ٥

فقد ورد ذكر الجبال في الآية الكريمة في موطن الحديث عن يوم القيامة وما يكون فيه من أهوال، كنسف الجبال التي تبدو حينئذ كالصّوف المنفوش، ويكون الناس حين خروجهم من القبور كالفراش المنتشر المتطاير في كل الاتجاهات دون ترتيب، وقد سميت السورة بالقارعة؛ لأنها "تقرع أسماع الناس وتدقها دقًّا شديدًا عظيمًا مزعجًا بالأفزاع، والأجرام الكثيفة بالتشقّق والانفطار، والأشياء الثابتة بالانتثار"(٢).

(١) ينظر مفاتيح الغيب ج٣٠/٦٩٠

(٢) ينظر نظم الدرر في تناسب الآيات والسور جـ٢٢/٢٢٠

"وَالْعِهْنُ: الصُّوفُ، وَقِيلَ: يَخْتَصُّ بِالْمَصْبُوغِ الْأَحْمَرِ، أَوْ ذِي الْأَلْوَانِ، وَالْمَنْفُوشُ: الْمُفَرَّقُ بَعْضُ أَجْزَائِهِ عَنْ بَعْضٍ؛ لِيُغْزَلَ أَوْ تُحْشَى بِهِ الْحَشَايَا"(١)

وجملة ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ بيان لعظمة ذلك اليوم، ببيان ما يترتب عليه من أهوال، وقد سُبقت هذه الجملة بما يؤكِّد على تعظيم أمر القارعة عن طريق الاستفهام في جملة ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ فقد زاد أسلوب الاستفهام من هولها وعظمتها، وزاد من شدة التهويل إبهام اليوم مع ما أضيف إليه من أحوال الناس والجبال.

وتشبيه الناس في هذا الموقف العظيم بالفراش المبثوث؛ لِمَا يكون عليه الناس في هذا الموقف من التزاحم عند خروجهم من القبور مع كثرتهم التي يستحيل تصورها، مع ما في ذلك من الذهول وعدم التوازن، يقول تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢ ﴾ الحج: ٢

وقوله تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ معطوف على جملة ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴾ فهو داخلٌ في حيِّز بيان عظمة القارعة وبيان أهوالها، فذَكر تحوّل الجبال التي هي من أقوى المخلوقات وأشدّها في هذا اليوم، حيث تصير كالصوف المنفوش، الذي يُعرف بالهشاشة والخفة.

وتشبيه الجبال بالعهن المنفوش دليلٌ على ضعفها ووهنها بعد أن كانت صلبة قوية متحجرة، ووجه الشبه بينهما هو تفرُّق الأجزاء وانتثارها، فالجبال تتفرَّق أجزاؤها نتيجة دكّها ونسفها فتصبح هباءً، كما جاء في قوله تعالى:﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴾ الواقعة:٦ كما أن الصوف بخفته وضعفه

(١) ينظر التحرير والتنوير جـ٣٠/٥١١

يمكن أن تطيره الريح في اتجاهاتٍ كثيرة، قال تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾ النمل: ٨٨ ، لذا ناسب تشبيه الجبال حال ضعفها وخفتها بالعهن المنفوش، واختيار الصوف في التشبيه مناسبٌ جدًّا لتشبيه الجبال؛ لتعدّد ألوانها وأشكالها، قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ فاطر:/ ٢٧

هذا... وقد عرض الإمام أبو حيان لمراحل الجبال وأطوارها في يوم القيامة وما يعتريه من الأهوال التي لا تجعل للذهن ثبوتًا ولا تركيزًا، بقوله:

"اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَ فِي مَوَاضِعَ مِنْ كِتَابِهِ أَحْوَالَ هَذِهِ الْجِبَالِ عَلَى وُجُوهٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَيُمْكِنُ الْجَمْعُ بَيْنَهَا عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي نَقُولُهُ: وَهُوَ أَنَّ أَوَّلَ أَحْوَالِهَا الِانْدِكَاكُ وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ ﴾ الحاقة: ١٤

وَالْحَالَةُ الثَّانِيَةُ لَهَا: أَنْ تَصِيرَ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ وَذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ:﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ ﴾ القارعة: ٤ – ٥ وَقَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ ﴾ المعارج: ٨ - ٩

والحالة الثَّالِثَةُ: أَنْ تَصِيرَ كَالْهَبَاءِ، وَذَلِكَ أَنْ تَتَقَطَّعَ وَتَتَبَدَّدَ، بَعْدَ أَنْ كَانَتْ كَالْعِهْنِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾ ﴾ الواقعة: ٤ - ٦

والحالة الرَّابِعَةُ: أَنْ تُنْسَفَ؛ لِأَنَّهَا مَعَ الْأَحْوَالِ الْمُتَقَدِّمَةِ قَارَّةٌ فِي مَوَاضِعِهَا، وَالْأَرْضُ تَحْتَهَا غَيْرُ بَارِزَةٍ، فَتُنْسَفُ عَنْهَا بِإِرْسَالِ الرِّيَاحِ عَلَيْهَا، وَهُوَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ طه: ١٠٥

وَالْحَالَةُ الْخَامِسَةُ: أَنَّ الرِّيَاحَ تَرْفَعُهَا عَنْ وَجْهِ الْأَرْضِ، فَتُطَيِّرُهَا شُعَاعًا فِي الْهَوَاءِ كَأَنَّهَا غُبَارٌ، فَمَنْ نَظَرَ إِلَيْهَا مِنْ بُعْدٍ حَسِبَهَا لِتَكَاثُفِهَا أجسامًا جامدة، وهي الْحَقِيقَة مَارَّةٌ، إِلَّا أَنَّ مُرُورَهَا بِسَبَبِ مُرُورِ الرياح بها [صيرها] مندكة متفتتة، وهي قوله: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ النمل: ٨٨

ثُمَّ بَيَّنَ أَنَّ تِلْكَ الْحَرَكَة حَصَلَتْ بِقَهْرِهِ وتسخيره، فقال: ﴿ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ ﴾ الطور: ١٠

الْحَالَةُ السَّادِسَةُ: أَنْ تَصِيرَ سَرَابًا، بِمَعْنَى لَا شَيْءَ، فَمَنْ نَظَرَ إِلَى مَوَاضِعِهَا لَمْ يَجِدْ فِيهَا شَيْئًا، كَمَا أَنَّ مَنْ يَرَى السَّرَابَ مِنْ بُعْدٍ إِذَا جَاءَ الْمَوْضِعَ الَّذِي كَانَ يَرَاهُ فِيهِ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ"(١).

****

(١) ينظر مفاتيح الغيب جـ ١٤/٣١

خاتمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على أشرف الخلق وسيّد المرسلين، سيدنا محمد –ﷺ– وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمَّا بعد، فقد كانت هذه دراسة بلاغية تحليلية لما ورد في القرآن الكريم من الحديث عن الجبال، وكان من أهم ما انتهت إليه الدراسة من نتائج ما يأتي:

- ذُكرت الجبال في القرآن الكريم كمنظومة واحدة، فجاء الحديث عنها غالبا بلفظ الجمع (الجبال)، ولم يأت مفردًا (الجبل) إلا في مواضع قليلة منها، تحمل في مضمونها مناسبة خاصة، كالجبل الذي دُكَّ حين تجلَّى الله _تعالى_ له، والجبل الذي أُنتق فوق بني إسرائيل وجُعل فوقهم كالظلة، وأيضًا الجبل الذي احتمى به ابن نوح _عليه السلام_ وظن أنه سيحميه من الغرق.
- ورد لفظ الجبال في القرآن الكريم تسعًا وثلاثين مرة، جاء منها ستٌّ بصيغة المفرد (جبل) وثلاث وثلاثون بصيغة الجمع (الجبال).
- جاء التعبير القرآني مناسبًا مع عظمها وضخامتها وقوتها عند الحديث عن أحوالها الدنيوية، كما دلَّ على هوانها وخفتها عند الحديث عن أهوال القيامة كالعهن المنفوش.
- اتخذ القرآن الكريم من الجبال أداة شاهدة على عدم القدرة البشرية على تحمُّل رؤية الله تعالى، باعتبارها أصلب وأشدّ قوة ومتانة من البشر، وذلك في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾ **الأعراف**:/ ١٤٣
- اتُخذت الجبال أداة لتهديد المكذبين والتعريض بهم، كالجبل الذي أُنتق فوق بني إسرائيل في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ

وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمۡ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾ الأعراف: ١٧١

- استخدم القرآن الكريم التشبيه بالجبل؛ للدلالة على أن المشبَّه قد بلغ الغاية في القوة والعظمة، كتشبيه الموج بالجبال في قوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ هـــود: ٤٢ فدل التشبيه على عظم الموج وأنه لا يُحتمل.
- جاء الحديث عن الجبال دليلًا على امتنان الله _تعالى_ على عباده بنعمه التي أسبغها عليهم كاتخاذها أكنانًا يحتمون فيها من الأضرار التي قد تلحق بهم، لذا جاء العطف بالواو للتدليل على تعداد النعم وتنوعها.
- جاء الحديث عن الجبال دليلًا واضحًا على إظهار عظمة القرآن الكريم، وبيان مكانته، ومدى تأثيره في تلك الأجسام الصلبة التي يستحيل إدراك ضعفها ووهنها عن طريق وصفها بالخشوع والتصدُّع نتيجة تأثيره فيها.
- كان لحديث القرآن الكريم عن الجبال أثرٌ واضح في إظهار القدرة الإلهية العظيمة في أبهى صورها، وذلك عند الحديث عن أهوال القيامة وما يحدث للجبال في هذا اليوم العصيب من التسيير والدكّ والنسف والبسّ وتصييرها هباءً منبثًّا وكثيبًا مهيلًا، مع كونها أعظم المخلوقات قوة ومتانة وصلابة.
- ما عرضه القرآن الكريم من أحوال الجبال يوم القيامة يعكس حال الهلع والخوف التي تصيب الخلق في هذا اليوم؛ فإن مشاهد الجبال الراسيات حال زوالها وسيرها بخفة دليلٌ قاطعٌ على الهول الذي تسير منه الجبال، وهذا بدوره يعكس حال الهول الذي يصيب الإنسان.

- استعمل القرآن الكريم الجبال كمادة دالة على مهارة قوم سيدنا صالح وتقدُّمهم في البناء والعمارة، وقدرتهم على اتخاذ البيوت ونحتها من هذه الأحجار الصلبة القوية.
- آثر النظم الكريم التعبير بلفظ الجبال في مقام التحذير والتخويف؛ نظرًا لجلاله وهيبته بما يتلاءم مع المقام، بخلاف غيره من الأسماء الدالة عليه كالطور والأعلام.
- اعتمد النظم على التشبيه بالجبال في المواطن التي تتطلب العظمة والقوة؛ لأهمية الجبال ومكانتها بين المخلوقات كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ ﴾ الرحمن: ٢٤
- جاء الاستدلال بزوال الجبال للتأكيد على زوال غيرها من المخلوقات، لكونها أقوى المخلوقات فكيف بما دونها؟.

ثبت المصادر والمراجع

***القرآن الكريم**

١- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم= تفسير أبي السعود لأبي السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (ت: ٩٨٢هـ)- دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٢- أنوار التنزيل وأسرار التأويل =تفسير البيضاوى تأليف: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله ابن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (المتوفى: ٦٨٥هـ)- تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي – دار إحياء التراث العربي – بيروت- الطبعة: الأولى – ١٤١٨هـ

٣- أوضح التفاسير _المؤلف: محمد محمد عبد اللطيف بن الخطيب (ت: ١٤٠٢هـ) الناشر: المطبعة المصرية _الطبعة: السادسة، رمضان ١٣٨٣ هـ – فبراير ١٩٦٤م.

٤-البحر المحيط في التفسير لأبي حيان محمد بن يوسف بن أثير الدين الأندلسي (ت: ٧٤٥هـ) تحقيق: صدقي محمد جميل – دار الفكر – بيروت الطبعة ١٤٢٠ هـ.

٥- التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» تأليف: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : ١٣٩٣هـ)_ الدار التونسية للنشر _ تونس_ ١٩٨٤ هـ.

٦- التسهيل لعلوم التنزيل لأبي القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الغرناطي (ت:٧٤١هـ) تحقيق: الدكتور عبد الله الخالدي، الناشر: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت- الطبعة: الأولى – ١٤١٦ هـ.

٧- تفسير القرآن العظيم المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ)- المحقق: سامي بن محمد سلامة- دار طيبة-الطبعة:الثانية١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م
٨- التفسير الوسيط للقرآن الكريم لمحمد سيد طنطاوي_ دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة_ الطبعة: الأولى.
٩- الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي (ت:٦٧١هـ)- تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش- الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة – الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م
١٠- روح المعاني المؤلف: شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (المتوفى: ١٢٧٠هـ)- تحقيق: علي عبد الباري عطية- الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت_الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ
١١- زهرة التفاسير تأليف: محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة (المتوفى: ١٣٩٤هـ)_ دار النشر: دار الفكر العربي_بدون طبعة، بدون تاريخ.
١٢- صفوة التفاسير جـ ١/٤٣٥ حمد علي الصابوني-الناشر: دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة- الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م
١٣- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ)_ دار الكتاب العربي – بيروت- الطبعة: الثالثة ١٤٠٧ هـ.
١٤- لسان العرب لابن منظور تأليف: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: ٧١١هـ) الناشر: دار صادر – بيروت- الطبعة: الثالثة – ١٤١٤ هـ

١٥- مفاتيح الغيب لأبي عبد الله الرازي الملقب بفخر الدين الرازي (ت: ٦٠٦هـ)- دار إحياء التراث العربي – بيروت- الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠ هـ .

١٦- المفردات في غريب القرآن لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (المتوفى: ٥٠٢هـ) – تحقيق: صفوان عدنان الداودي- دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت- الطبعة: الأولى – ١٤١٢هـ

١٧- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور تأليف: إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (المتوفى: ٨٨٥هـ)- دار الكتاب الإسلامي- القاهرة.

References :

***alquran alkarim**

1- 'iirshad aleaql alsalim 'iilaa mazaya alkitaab alkarim= tafsir 'abi alsueud li'abi alsueud aleimadii muhamad bin muhamad bin mustafaa (t: 982ha)- dar 'iihya' alturath alearabii - bayrut.

2- 'anwar altanzil wa'asrar altaawil =tafsir albaydawaa talifi: nasir aldiyn 'abu saeid eabd allah bin eumar bin muhamad alshiyrazi albaydawi (almutawafaa: 685hi)- tahqiqu: muhamad eabd alrahman almaraeashali - dar 'iihya' alturath alearabii - bayrut- altabeatu: al'uwlaa - 1418h

3- 'awdah altafasir _almualafa: muhamad muhamad eabd allatif bn alkhatib (t: 1402hi) alnaashir: almatbaeat almisriat _altabeata: alsaadisati, ramadan 1383 hi - fibrayir 1964m.

4-albahr almuhit fi altafsir li'abi hayaan muhamad bin yusif bin ealii bin yusif bin hayaan 'uthir aldiyn al'andalusii (t: 745hi) tahqiqu: sidqi muhamad jamil - dar alfikr - bayrut altabeat 1420 hi.

5- altahrir waltanwir <<tahrir almaenaa alsadid watanwir aleaql aljadid min tafsir alkitaab almajid>> talifu: muhamad altaahir bin muhamad bin muhamad altaahir bin eashur altuwnisiu (almutawafaa : 1393ha)_ aldaar altuwnisiat lilnashr _ tunis_ 1984 hu.

6- altashil lieulum altanzil li'abi alqasima, muhamad bin 'ahmad bin muhamad bin eabd allah, aibn jazi algharnatii (t:741hi) tahqiqi: alduktur eabd allah alkhalidi, alnaashir: sharikat dar al'arqam bin 'abi al'arqam - bayrut- altabeatu: al'uwlaa - 1416 hu.

7- tafsir alquran aleazim almualafu: 'abu alfida' 'iismaeil bin eumar bin kathir alqurashii albasariu aldimashqiu (almutawafaa: 774hi)- almuhaqiq: sami bin muhamad salamat- alnaashir: dar tiibat lilnashr waltawzie altabeatu: althaaniat 1420h - 1999 m

8- altafsir alwasit lilquran alkarim limuhamad sayid tantawy_dar nahdat misr liltibaeat walnashr waltawzie, alfajaalat - alqahirat_altabeatu: al'uwlaa.

9- aljamie li'ahkam alquran = tafsir alqurtubii (t:671ha)- tahqiqu: 'ahmad albarduni wa'iibrahim 'atfish- alnaashir:

dar alkutub almisriat - alqahirat -altabeati: althaaniati, 1384h - 1964 m
10- ruh almaeani almualafi: shihab aldiyn mahmud bin eabd allah alhusaynii al'alusi (almutawafaa: 1270hi)- tahqiqu: eali eabd albari eatiat- alnaashir: dar alkutub aleilmiat - bayrutu_alitabeatu: al'uwlaa, 1415 hu
11- zahrat altafasir talifu: muhamad bin 'ahmad bin mustafaa bin 'ahmad almaeruf bi'abi zahra (almutawafaa: 1394ha)_ dar alnashri: dar alfikr alearbii_bidun tabeatan, bidun tarikhi.
12- safwat altafasir ja 1/435 hamd eali alsaabuni-alnaashar: dar alsaabuni liltibaeat walnashr waltawzie - alqahirati- altabeatu: al'uwlaa, 1417 hi - 1997 m
13- alkashaaf ean haqayiq ghawamid altanzil li'abi alqasim mahmud bin eamriw bin 'ahmad alzumakhashari jar allah (almutawafaa: 538ha)_ dar alkitaab alearabii - bayrut- altabeatu: althaalithat 1407 hi.
14- lisan alearab liaibn manzur talifi: muhamad bin makram bin ealaa ،'abu alfadali, jamal aldiyn aibn manzur al'ansarii alrrwayafeaa al'iifriqaa (almutawafaa: 711hi) alnaashir: dar sadir - bayrut- altabeata: althaalithat - 1414 hu
15- mafatih alghayb li'abi eabd allah alraazi almulaqab bifakhr aldiyn alraazii (t: 606h)- dar 'iihya' alturath alearabii - bayrut- altabeata: althaalithat - 1420 hu .
16- almufradat fi gharayb alquran li'abi alqasim alhusayn bin muhamad almaeruf bialraaghib al'asfuhanaa (almutawafaa: 502hi) - tahqiqu: safwan eadnan aldaawudii- dar alqalami, aldaar alshaamiat - dimashq bayrut- altabeatu: al'uwlaa - 1412h
17- nazam aldarar fi tanasub alayat walsuwr talifa: 'iibrahim bin eumar bin hasan alribat bin ealii bin 'abi bakr albiqaeii (almutawafaa: 885ha)- dar alkitaab al'iislami- alqahirati.